مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

ماريا إيفانوفنا

(ابنة الضابط)

للكاتب الروسي الخالد

الكسندر بوشكين

الكسندر بوشكين

ماريا ايفانوفنا

(ابنة الضابط)

LA FILLE
DU CAPITAINE
PAR
ALEX POUCHKINE

الثمن ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثامن والخمسون

ترجمة : سامى الدروبى

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها أربعة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية .

(١) رقيب فى الحرس

«حافظ على شرفك منذ أيام الصبا»
قول روسى مأثور

• كان « آندريه بتروفتلش جرينيانف » يعمل أبان شبابه فى الجيش ، تحت قيادة كونت مونيخ ، وأحيل الى المعاش برتبة (ضابط أول ـ أركان حرب) سـنة ألف وسبعمائة و .. وعاش ـ منذ ذلك الحين ـ فى ارضه بسيمبرسـك ، حيث تزوج ب «أدفوتيا فاسيليفنا اي ..» ، وهى ابنة سيد فقير من سكان المنطقة . وانجب الزوجان عشرة اولاد ، الا ان جميع اخوتى ماتوا فى سن مبكرة .

وكنت لا ازال فى رحم امى ، حين سجلت برتبة رقيب فى فوج سيمينوف ، بمساعى الضابط الأمير « ب .. » ، أحد اقربائنا . **ولو قد ولدت أمى بنتا بدلا منى على خلاف كل ما كان ينتظر ، لأعلن أبى للمراجع المختصة موت الرقيب «الذى لم يستجب للدعوة» ، ولوقف الأمر عند هـذا الحـد .** غير اننى ولدت صبيـا . « ومنحت اجـازة » الى ان انهى دراستى .

وكنا فى ذلك الوقت نربى تربية مختلفة كل الاختلاف عن تربية اليوم . عهد بى ـ منذ الخامسـة من عمرى ـ الى الخادم « سافيليتش » ، الذى استحق لسلوكه الممتاز لقب «مزيلى» السيد الصغير . وباشرافه تعلمت القراءة فى الثانية عشرة من عمرى ، واصبحت قادرا على ابداء رأى وجيه فى مزايا .. كلب سلوقى . وفى تلك الآونة ، استأجر لى أبى معلما فرنسيا هو مسيو « بوبريه » .. طلبه من موسـكو ، كما طلب ـ فى الوقت نفسه ـ مؤونةسنوية من الخمر وزيت

الزيتون . واستاء «سافيليتش» استياء شديدا من وصول هـذا المربى الجديد . فكان يدمدم بينه وبين نفسه قائلا : « أحسب أن الولد قد احسن تنظيفه وتلبيسه واطعامه ، فما الداعى الى انفاق المال فى استئجار مسيو فرنسى .. كأن ليس بيننا اكفاء ! »

وكان ((بوبريه)) فى بلاده حلاقا ، ثم عمل فى بروسيا جنديا ، وجاء أخيرا الى روسيا ليكون ((معلما)) ، دون أن يفهم معنى هذه الكلمة على وجه الدقة . وآفته الكبرى ميله الى الجنس اللطيف ، وكثيرا ما اتفق أن قوبلت عواطفه بضربات ، فاذا هو يظل يتوجع اياما بكاملها . ثم انه لم يكن « عدو الكأس » أبدا ، كما كان يقول هو نفسه .. ومعنى هذا فى الروسية القحة انه يسرف فى الشراب . ولكن لما كان النبيذ لايقدم فى بيتنا الا فى وجبة الغداء ، وكان لايقدم للشخص الا قدح واحد ، وكان المربى ـ فوق ذلك ـ ليس له منه فى العادة نصيب ، فان صاحبى ((بوبريه)) سرعان ما تعود الأشربة الروسية ، حتى أصبح يفضلها على خمور بلاده .. لأنه يجدها مهضمة اكثر من خمور بلاده !

وقد سادت بيننا روح التفاهم فورا ، وبرغم أن بنود الاتفاق نصت على أن عليه ان يعلمنى « الفرنسية والألمانية وجميع أنواع العلوم » ، فقد آثر أن يتعلم منى بعض مبادىء الروسية ، ثم شغل كل منا بعد ذلك بشؤونه الخاصة .. كنا نعيش صديقين . وما تمنيت ابدا أن يكون لى مرب غيره . ولكن ، سرعان مافرق بيننا القدر . واليكم كيف تم ذلك :

فى ذات يوم قررت الغسالة « بالاشكا » ـ وهى بنت سمينة ذات وجه مجدور ـ وقررت معها راعية البقر العوراء « أكولكا » ، ان ترتميا على قدمى أمى ، وتعترفا لها بأن

« المسيو » قد غرر بهما واستغل سذاجتهما ، فاوقعهما فى الاثم .. قالنا ذلك وهما تسكبان دموعا غزيرة . وكانت امى لاتحب مثل هذا المزاح ، فنقلت النبأ الى ابى .. وابى امرؤ لايبطىء ولايتلكأ فى مثل هذه الحالات ، فامر باحضار الفرنسى السافل على الفور . فلما قيل له ان « المسيو » مشغول باعطائى درسا ، جاء الى غرفتى بنفسه ..

وكان «بوبريه» فى تلك اللحظة متكوما على سريره يغط فى نوم عميق .. وكنت انا مشغولا بأمر هام . وهنا يجب ان اذكر انهم كانوا قد احضروا لى من موسكو خريطة جغرافيه، وكانت هذه الخريطة معلقة على الحائط دون ان تفيد فى شىء البتة . وكان قد انقضى زمن طويل على افتتانى بجمال شكلها وجودة ورقها ، فقررت أن أصنع منها « طيارة » ، وانتهزت فرصة نوم بوبريه فشرعت فى العمل ، وقد دخل أبى لحظة كنت منهمكا فى تركيز ذنب الطائرة على راس الرجاء الصالح !

فلما رآنى منهمكا الى هذا الحد فى « تمارين جغرافية ! » ، شد اذنى ، ثم التفت الى بوبريه يقرعه ويؤنبه . وحاول بوبريه أن ينهض - وقد ارتبك ارتباكا شديدا - الا انه لم يستطع النهوض .. لقد كان الفرنسى التعيس كالميت من شدة السكر ، فشده أبى من تلابيبه ، وانتزعه من سريره ، ورماه على باب الغرفة ، وطرده من البيت فى ذلك اليوم نفسه .

وسر «سافيليتش» من ذلك أيما سرور !.. وكان هذا الحادث خاتمة « ثقافتى » ، فعشت بعدئذ طفلا مدللا ، اصطاد الحمام واسترسل فى انواع اللعب مع ابناء خدمنا ، حتى بلغت نهاية السادسة عشرة من عمرى ، فطرا على حياتى تغير هام :

***

في ذات يوم من ايام الخريف ، كانت أمي فى الصالون تصنع معقود العسل .. وكنت انا الاحظ للرغوة الفائرة على سطح الوعاء .. وكان أبى واقفا الى النافذة يتصفح « جريدة البلاط » ، وهى نشرة سنويه تصل اليه بانتظام .. وكان أبى يهتم بهذا الكتاب اهتماما عظيما ، فكانت قراءته ذات قدرة عجيبة على اثارته . وكانت أمى – وقد حفظت عادات زوجها عن ظهر قلب – تحاول أن تخفى هذا الكتاب المنحوس فى ابعد مكان ، فكان يظل اشهرا برمتها لايقع تحت بصر ابى .. حتى اذا عثر به عرضا ، ظل يقلبه ساعات طويلة .

كان أبى يقرأ – اذن – هذا الكتاب فى ذلك اليوم ، فكان يهز كتفيه من حين الى حين ، وهو يردد بصوت منخفض : « ايصبح هو لواء ، وقد كان فى كتيبتى رقيبا ؟ ! » . واخيرا رمى الكتاب على الديوان ، وغرق فى تأمل لايبشر بخير .. وفجأة ، التفت نحو أمى يسألها : « آفدوتيا فاسيليفنا ، ماعمر بتروشا ؟ »

– دخل فى السابعة عشرة . لقد ولد سنة فقدت العمة ناستاسيا جراسيموفنا عينها ، وسنة ..

– حسنا .. آن أوان التحاقه بالخدمة العسكرية . كفاه تسكعا بالقرب من غرف الخادمات ، وتسلقا الى أعشاش الحمام .

فلما تصورت أمى انها ستنفصل عنى فى القريب ، انفعلت انفعالا شديدا ، حتى لقد سقطت الملعقة من يدها فى القدر ، وسالت على خديها دموع غزيرة . اما انا ، فلم اجد ما اعبر به عن حماستى . لقد كانت فكرة الخدمة العسكرية متحدة فى ذهنى بفكرة الحرية وملذات العاصمة . وتصورت نفسى منذ الآن ضابطا فى الحرس ، وكان ذلك فى نظرى غاية مايطمع فيه انسان من سعادة .

وابى أمرؤ لايحب أن يبدل ما يعزم عليه من امر ، ولا ان يرجىء التنفيذ . فما هى الا لحظات حتى حدد يوم سفرى . وقال لى - فى اليوم التالى - اننى ساحمل رسالة الى رئيسى ، وطلب أن يأتوه بقلم وورق . فقالت الأم : « لاتنس ايضا ، يا آندريه بتروفتش ، أن تبلغ الأمير «ب ..» تحبتى ، وقل له اننى آمل أن لا يضن على بتروشا بعطفه وفضله » .

فأجاب أبى مقطباحاجبيه : «ولكن علام أكتب للأمير ب..؟»

- ألم تقل انك ستكتب الى رئيس بتروشا ؟

- نعم

- اليس الامير « ب .. » رئيسه ؟ .. اليس بتروشا مسجلا فى فوج سيمينوف ؟

- مسجل ؟ ! ..وما قيمة التسجيل ؟ .. ان بتروشا لن يذهب الى سان بطرسبرج . ماعسى ان يتعلم هنالك ؟ .. يبدد ماله ويرتكب الموبقات ؟ .. كلا ، يجب أن ينخرط فى الجيش . يجب أن يتعلم الخدمة العسكرية .. يجب أن يعرف ما هو البارود ، وان يصبح جنديا باسلا ، لاشابا طائشا ! .. مسجل فى الحرس ؟ ! .. أين جواز سفره ؟ .. ائتينى بجواز سفره !

وجاءت أمى بجواز السفر - وكانت قد أودعته صندوقها مع القميص الذى كنت ارتديه يوم تعميدى - فمدته الى أبى بيد مرتجفة .. وقرأ أبى جواز السفر بانتباه ، ثم وضعه على المنضدة أمامه ، وبدأ كتابة رسالته . وتيقظ فى نفسى حب الاستطلاع : ترى أين يرسلوننى اذا لم يرسلونى الى سان بطرسبرج ؟ ولم احول بصرى عن حركة القلم ، وكان القلم لايتحرك الا ببطء ..

واخيرا فرغ ابى من الكتابة ، فوضع الرسالة وجواز السفر كليهما فى ظرف واحد ، وختم الظرف ، ثم نزع

نظارتيه ودعانى الى جانبه قائلا : « خذ ! .. هذه رسالة الى آندريه كارلوفتش ، صديقى القديم ورفيقى فى السلاح . ستمضى الى (أورنبورج) ، وتكون تحت امرته » .

هكذا خابت آمالى البراقة ! .. لن أعيش اذن حياة مرحة فى سان بطرسبرج ، بل حياة كابية مملة فى أعماق ركن بعيد من الريف . وبدت لى حياتى المقبلة ــ التى كنت أحلم بها منذ دقيقة واحدة فى حماسة عظيمة ــ كأنها فاجعة حقيقية على حين غرة .. الا أن المناقشة لا محل لها مع أبى !

وفى الصباح من الغداة ، كانت عربة الرحيل تقف عند باب البيت ، وقد وضعت فيها حقيبتى ، ووضع فيها صندوق يضم ادوات الشاى ، وصرر محشوة بأقراص الفطائر .. وكان ذلك آخر بادرة من بوادر حنان الأم . وباركنى ابواى .. وقال ابى : «فى رعاية الله يابترو ، وآمل ان تفيد فى خدمتك اولئك الذين ستقسم لهم يمين الاخلاص .. اطع رؤساءك ، ولكن لاتستجد عطفهم .. لاتكن متهورا ، ولكن لاتتخلف عن القيام بالواجب ، وتذكر المثل القائل : على المرء ان يحتفظ بعفته وبشرفه منذ ايام صباه ! »

وبكت امى بكاء سخيا ، وتوسلت الى ان أعتنى بصحتى ، وناشدت سافيليتش أن يسهر على ولدها .. والبسونى فروة من جلد الارنب . ثم البسونى فوقها معطفا من فراء الثعلب . وصعدت عربتى يتبعنى سافيليتش .. وتركت المنزل الأبوى وانا أذرف الدموع .

***

وصلت (سيمبرسك) فى الليلة نفسها .. وكان علينا ان نمكث فيها نهارا بكامله ، نشترى ما نحن فى حاجة اليه من اشياء كثيرة . فنزلنا فى احد الفنادق ، وعهدت الى

سافيليتش بشراء ماينبغى شراؤه . فمضى ـ منذ الصباح ـ يتنقل بين « الدكاكين » . وسئمت النظر من خلال النافذة ـ وكانت تشرف على درب موحل ـ فأخذت أطوف بين الغرف . فلما وصلت الى غرفة « البليارد » ، رأيت رجلا فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ذا شارب طويل اسود ، وقد ارتدى ثوب البيت ، وفى فمه غليون ، وبيده عصا « البليارد » . وكان الرجل يلعب « البليارد » مع العامل المولج (١) بالمد ، فكان اذا غلبه العامل أمر له بقدح من « الفودكا » ، واذا غلب هو العامل حمله على أن يمر تحت طاولة « البليارد » وهو يحبو على اربع ! .. ووقفت اشاهد اللعب . كانت نزهات العامل تحت الطاولة على اربع قوائم تكثر شيئا بعد شيء ، الى أن ظل ـ فى آخر مرة ـ تحت طاولة « البليارد » ، فصاح خصمه كانما هو يرثيه . ثم اقترح على أن العب معه ، فرفضت ذاكرا اننى أجهل هذه اللعبة ، فبدا له ذلك عجيبا ، وألقى على نظرة لمحت فيها الأسف !

وانعقدت بيننا ـ مع ذلك ـ اواصر التعارف . فعلمت انه يدعى « ايفان ايفانوفتش زورين » ، وانه كان ضابطا فى الفرسان ، وقد اتى الى (سيمبرسك) لحضور حفلة تجنيد ، وانه نزيل هذا الفندق نفسه . ثم دعانى الى تناول العشاء معه بلا كلفة ، على الطريقة العسكرية ، فقبلت الدعوة شاكرا . وجلسنا الى المائدة ، فشرب كثيرا ، وحملنى على الاكثار ، «ليعودنى الخدمة» ، على حدتعبيره . وقص على ـ اثناء ذلك ـ من النوادر العسكرية ماضحكت له حتى نفرت من

---

(١) الواضح من السياق ان المترجم قصد « الموكل » .

عينى الدموع. ونهضنا عن المائدة على أحسن مايكون صديقان.
وسرعان ماتبرع بتعليمى لعبة «البيارد» . قائلا : «أننا ـ معشر العسكريين ـ نحتاج حقا الى هذا .. مثلا ، حين يكون أحدنا فى الريف ، فيصل الى قرية صغيرة ، ماذا عساه يفعل ؟ .. اننا لانستطيع أن ننفق كل وقتنا فى اضطهاد اليهود ، ولابد أن يمضى أحدنا الى الفندق ـ شاء أم أبى ـ فيلعب بعض الوقت .. ولابد اذن من معرفة اللعب ! »
وبدا لى هذا الكلام منطقيا . وانصرفت الى الانتفاع بـ « تعليمه » فى اهتمام ، فكان يشجعنى بصوت مرتفع . وظهر عليه أنه فى دهشة عظيمة من سرعتى فى التعلم . **واقترح على ـ بعد عدد من الدروس ـ أن نلعب متراهنين على بعض الدراهم ، مهما تكن قليلة .. لابغية الربح ، بل حتى لانلعب على فراغ ، لأن ذلك فى رأيه من أسوأ العادات !**
.. وطلب «زورين» نوعا من الشراب ، حملنى على أن أذوقه، وهو لايفتأ يردد أن على أن أتعود الخدمة ، وأن الخدمة بلا شراب لاتجدى فتيلا .. وتحمست ، وكانت جراتى تزداد بازدياد عدد الأقداح التى أفرغها فى جوفى ، حتى أصبحت كراتى تقفز فوق حافة الطاولة قفزا . وانفعلت ، فاتهمت العداد بانه لايحسن العد ، وانه يربى اخطائى ساعة بعد ساعة .. والخلاصة أننى تصرفت تصرف طفل ترك له الحبل على غاربه . وكانت الساعات ـ أثناء ذلك ـ تنقضى .. والقى زورين نظرة سريعة على الساعة ، ثم وضع عصاه معلنا اننى قد خسرت مائة روبل . واضطربت لهذا اضطرابا غير قليل، لأن دراهمى كانت مع سافيليتش ، فأخذت أقدم له اعذارى .. ولم يدعنى أتم كلامى ، بل قال : « لاداعى الى القلق .. أستطيع أن امهلك ! .. هل تحب أن تأتى معى ؟ .. من الممكن الآن أن اقدمك الى آرينوشكا ! »

واستجبت لدعوته ، وانهيت النهار فى حماقة وبلاهة كما بدأته . فقد تعشينا عند آرينوشكا . وكان زورين ماينفك يسكب لى قدحا بعد قدح ، وهو يردد أن على أن « أتعود الخدمة » ! .. وحين نهضنا عن المائدة ، كنت لا أكاد أستطيع الوقوف من شدة السكر .

وكان الليل قد انتصف حين أعادنى زورين الى الفندق .. واستقبلنا سافيليتش لدى الباب ، فصرخ حين رآنى على هذه الحال من الحماسة للخدمة (!) ، وقال بتأوه : « ماذا جرى لك ياسيدى ؟ .. أين مضيت حتى عدت على هذه الحال ؟ .. رباه ! لم أشهد فى حياتى منظرا كهذا المنظر » . فأفأت أجيب : « أسكت ياعجوز النحس . لعلك سكران ! .. ضعنى فى السرير ، واذهب الى النوم ! »

وفى الصباح التالى ، استيقظت من نومى وانا اشعر بصداع هائل ، ولا أكاد اتذكر حوادث البارحة . وقطع سافيليتش تأملاتى ، وقد أقبل يحمل الى قدحا من الشاى . وقال وهو يهز رأسه : « لقد بكرت يابترو اندريفتش .. مازلت اصغر سنا من ان تسترسل هذا الاسترسال . ثم من اين اتاك هذا ؟ .. ماكان ابوك سكيرا ، ولا كان جدك سكيرا . اما امك فلا داعى الى ذكرها هنا ، فانها لم تشرب فى حياتها كلها غير عصير الفاكهة ! .. ومن المسئول عن هذا ؟ .. انه ذلك « المسيو » اللعين (١) .. كان لاينفك يسرع الى حانة آنتيفنا يقول : «ارجوك ، يامدام.. فودكا !» .. هذا ما اوصلنا اليه ذلك المسيو الفرنسى . لقد علمك اشياء جميلة جدا ، هذا الكلب ابن الكلب .. كأنما كنا فى

(١) يقصد المدرس الفرنسى «بوبريه» .

حاجة الى ان يربيك رجل هرطيق ! .. كأن لم يكن فى البيت ما يكفى من ناس عقلاء ! »

وشعرت بالخجل والعار . فاشحت وجهى قائلا : « أذهب ياسافيليتش ، فلست فى حاجة الى شاى » . ولكنه كان اذا استرسل فى مواعظه ، يستحيل ايقافه . فاستمر يقول : «هل رأيت الآن يابترو اندريفتش مانتيجة الشراب ؟ .. انه يثقل الرأس ، ويفقد شهوة الطعام . ان الرجل الذى يشرب لايصلح لشىء .. هل تحب أن آتيك بقدح من حساء الخيار مع العسل ؟ .. الأفضل مع ذلك ان تحتسى نصف قدح من شراب قوى .. هل تريد ؟ » .. وفى هذه اللحظة ، دخل خادم شاب ، يحمل الى بطاقة من زورين . ففضضت البطاقة ، وقرأت فيها مايلى :

« صديقى العزيز بترو اندريفتش : ارجو ان ترسل الى مع الخادم مائة الروبل التى خسرتها امس فى اللعب ، فانا فى حاجة ماسة اليها ! — **المخلص : ايفان زورين** »

لامفر ! .. اصطنعت هيئة من لايبالى ، واتجهت الى سافيليتش — الذى كان « مكلفا » بمالى وثيابى واشيائى — فأمرته ان ينقد الخادم مائة روبل . فسألنى وقد صعق من شدة الدهشة : « لماذا ؟ لأى غرض ؟ »

— **اننى مدين له بهذا المبلغ !**

قلت ذلك فى اكبر هدوء ممكن ، فأخذ سافيليتش يردد ، وقد ازداد اضطرابه : « مدين له بهذا المبلغ ؟ .. ولكن هل اتسع وقتك حتى الآن للاستدانة ؟ .. يبدو لى أن فى هذا الأمر شيئا عجيبا ! .. على أننى لن ادفع المال فى اى حال ! »

وشعرت أننى ان لم أخضع هذا العجوز فى هذه اللحظة ، فسيتعذر على أن أتحرر من وصايته فيما بعد . فرميته بنظرة شامخة قائلا : « أنا سيدك ، وأنت خادمى .. والمال

مالى ، وقد خسرته لأن ذلك قد حلالى. أما أنت ، فانصحك بأن لاتتحذلق ، وبأن تطيع ما يلقى اليك من أوامر ! » .. وبلغ سافيليتش من شدة الدهشة أنه لم يجد ما يجيب به غير أن عقد يديه ، فصحت قائلا فى لهجة من فرغ صبره : « ماذا تنتظر ؟ » .. فأخذ يبكى ، ثم قال بصوت مرتجف :

« ياتوشكا بترو آندريفتش ، لاتمتنى غما وكربا ! .. ياقلبى العزيز ، أطع مربيك القديم . اكتب الى هذا اللص أنك كنت هازلا غير جاد ، وأننا لانحمل مثل هذا المبلغ .. مائة روبل ! يا الهى! .. قل له ان أبويك قد حظرا عليك حظرا مطلقا ان تلعب على غير حبات من البندق ! »

قلت فى قسوة : « كفى ثرثرة ! .. هات المال ، والا طردتك بضربات من نعلى ! » .. فألقى على سافيليتش نظرة تفيض بالحزن ، ومضى ليأتى بالمال . وكنت أشفق على هذا الرجل المسكين ، الا أننى كنت اريد أن استقل ، وان اشعر بأننى لست طفلا .. وتسلم زورين المال . ثم سارع سافيليتش فأخرجنى من هذا الفندق الذى جر على الويل .. وأنى يبلغنى أن الخيل معدة . فتركت سيمبرسك وفى ضميرى عذاب ثقيل وندامة خرساء. . ولم أودع «معلمى» زورين ، ولا دار فى خلدى أننى سأراه مرة أخرى فى يوم من الأيام .

(٢) الدليل الذى ساقته العاصفة !

« ايه ايها البلد المجهول ..
« ما أتيت الى هنا طوعا ،
« ولا قادنى اليك جوادى الكريم ،
« وانما هى حماستى وبأسى وشجاعتى ،
« وميلى الى خمور الحانات .. » ـ اغنية

• استغرقت ـ خلال هذه السفرة الثانية ـ فى تأملات مؤلمة .. أن المبلغ الذى فقدته مبلغ ضخم ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى اسعار الأشياء فى ذلك الوقت . وكنت لا استطيع الا ان أدرك ان سلوكى فى الفندق كان سلوكا ابله على اقل تقدير . وشعرت بأننى مخطىء فى حق سافيليتش .. كان ذلك كله يعذبنى .

وظل المسكين ساكنا لايتحرك ، وقد ظهر على وجهه الحزن والاسف ، دون أن ينظر الى ، ودون ان يخاطبنى بكلمة واحدة .. وكنت راغبا فى أن أصالحه حقا ، ولكننى لم أكن اعرف السبيل الى مصالحته . فقلت له اخيرا : « اسمع يا سافيليتش .. يكفى هذا الآن ، ولنتصالح ! .. أدرك الآن اننى مخطىء . لقد ارتكبت بالأمس حماقات ، واليوم اغلظت لك القول دون ما سبب . فاعدك بان احسن سلوكى فى المستقبل ، وأن أطيعك فى كل أمر . هيا ، هيا ، لاتغضب !.. لنتصالح ! »

فأجاب وهو يطلق من صدره زفرة عميقة : « آه ياباتوشكا بترو آندريفتش ، لست الوم الا نفسى .. أنا المذنب . كيف امكن أن أتركك وحدك فى الفندق ؟ .. ان الشيطان قد اغوانى ! اردت أن ازور امرأة خادم الكنيسة التى كانت اشبينتى .. ما اشقانى ! كيف امثل بين يدى سيدى ؟ ..

ماعسى ان يقولا عنى ، اذا عرفا ان ابنهما يعاقر الخمرة ويقامر ؟ »

واردت ان اواسيه ، فقطعت له على نفسى عهدا ان لا انفق بعد الآن فلسا واحدا (كوبك) دون موافقته . وهدأ روعة شيئا فشيئا ، رغم أنه كان يهز رأسه من حين الى حين ، وهو يدمدم بقوله : « مائة روبل ! .. الكلام سهل ! .. »

ومضينا نتقدم نحو محط الرحال : حقول حزينة مقفرة تخترقها هضاب وتتخللها اخاديد من مجارى السيول ، تمتد من حولنا حتى الافق .. والثلج يغطى كل شيء .. والشمس تغرب .. والعربة تسير فى طريق ضيق ، أو قل فى ممر شقته عربة من عربات الفلاحين . وفجأة اخذ الحوذى يحدق فى نقطة من الأفق ، ثم التفت الى وقال وهو يرفع قبعته : « الا يأمرنى سيدى بأن أعود أدراجى ؟» . فسألته : « لماذا ؟ »

ـ أن الجو لايبشر بخير ، فالريح أخذت تهب .. انظر كيف تطرد ذرات الثلج !

قلت ساخرا : « خطر عظيم ! » . فقال وهو يسدد سوطه نحو المشرق : « ولكن أنظر هنالك ، الا ترى ؟ »

ـ لا أرى الا سهلا أبيض وسماء صافية .

ـ وتلك الغمامة الصغيرة ؟

بصرت فى أقصى الافق بغمامة بيضاء ، كنت قد حسبتها رابية بعيدة ، فأوضح لى الحوذى انها تنذر بعاصفة ثلجية . وكنت قد سمعت عن هذه الرياح العاتية التى تخرب القرى وتدفن فى بعض الأحيان ركبانا بأسرها . ونصح سافيليتش ـ الذى وافق السائق على مخاوفه ـ أن نعود أدراجنا ، الا ان الريح لم تبد لى قوية جدا ، وكنت آمل ان تصل الى

المحطة التالية فى وقت مناسب ، فأمرت الحوذى بأن يغذ فى السير .

وراحت الخيل تنهب الأرض خببا ، بينما السائق لايكف عن النظر الى ناحية الشرق . كانت الخيل تجرى نشيطة قوية ، الا أن الريح اشتدت ، واستحالت غمامة الصغيرة الى سحابة ضخمة بيضاء أخذت تتسع — ثقيلة هائلة — وتكبر ، حتى غطت السماء كلها . وأخذ الثلج يهطل ، رذ ذا دقيقا فى أول الأمر ، وسبائخ (١) ضخمة بعد ذلك .. والريح تزأر . انها العاصفة ! .. وما هى الا لحظة حتى اصبحت الأرض الفسيحة والسماء القاتمة بحرا من الثلج .

صرخ الحوذى يقول : « انها العاصفة ياسيدى .. يا ويلنا ! » . فأخرجت رأسى من العربة ، فلم أر الا ظلمات وزوابع تزأر كأنها حيوان هائل .. وغطانى الثلج تماما ، كما غطى سافيليتش . ولم تعد الخيل تتقدم الا فى كثير من العناء ، ثم لم تلبث أن توقفت . فقلت وقد فرغ صبرى : « لماذا لاتتقدم ؟ » . فأجاب الحوذى وهو ينزل عن مكانه : «الى اين تريد ان اسير ؟ .. الله يعلم اين نحن الآن ، فلست أرى طريقا ، وليس ثمة الا ظلام دامس ! »

وأخذت أكيل له اللوم جزافا ، فتدخل سافيليتش ودافع عنه ، ودمدم يقول فى حنق : «لماذا لم تطعه ؟ .. أبيت الا أن يتقدم ، بدلا من أن نعود أدراجنا الى النزل ، فنحتسى الشاى وننام حتى الصباح ، فتكون العاصفة قد انقضت ، ونستأنف المسير .. ما الذى يدفعنا الى هذه السرعة كلها ؟ .. أنحن ذاهبون الى عرس ؟ ! .. »

---

(١) السبيخ هو ما تناثر من الريش او القطن .. وتستخدم مجازا للثلج .

***

وكان سافيليتش على حق ، ولكن ما من وسيلة لاصلاح الموقف ! .. واستمر الثلج يهطل ، وأخذ يتكوم أمام العربة . ورأيت الخيل تطأطىء رؤوسها ، وترتعد من حين الى حين . واخذ الحوذى يدور حولها ويرتب عدتها تزجية الوقت . وجعل سافيليتش يدمدم متذمرا . أما أنا ، فكنت أنظر من حولى الى جميع الجهات لعلى اعثر ولو على اثر للطريق ، أو لعلى أهتدى الى مسكن من المساكن ، الا اننى لم ار الا الثلج يحيط بنا . وفجأة ، لمحت كتلة قاتمة فهتفت : « يا حوذى .. إنظر ! ماذا ترى هنالك ؟ »

وحاولت نظرة الحوذى ان تخترق الظلام . ثم اجاب وهو يعود الى مكانه : « الله أعلم ما هذا ايها السيد . ليس هو عربة ، ولا شجرة .. لكانه يتحرك . لعله ذئب ، أو انسان ! » . فأمرته أن يمضى نحو هذا الشىء المجهول ، الذى كان يتقدم نحونا هو ايضا . وما هى الا دقيقة أو دقيقتان حتى التقينا برجل . فصاح الحوذى يسأله : «انت أيها الأخ ! .. قل لنا ، هل تعرف أين الطريق ؟ » . فأجاب الرجل : « الطريق ؟ .. هذه هى . ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ »

قلت : « اسمع ايها الأخ الشهم ، هل تعرف المنطقة ؟ .. هل تستطيع ان تقودنا الى اقرب مكان ماهول ؟ »

ــ المنطقة اعرفها . لقد طفتها من كل جهة ، طفتها على صهوة الجواد ، وطفتها سائرا على القدمين . ولكنك ترى حالة الجو .. اننا لن نسير خطوتين حتى تزول معالم الطريق .. والأولى أن لا نتحرك من مكاننا ، وأن ننتظر هدوء العاصفة وانكشاف السماء ، فقد نستطيع عندئذ ان نستهدى النجوم .

وبث هدوءه الشجاعة فى نفسى ، فقررت ان اكل امرى الى الله ، وأن اقضى الليلة فى هذا الخلاء ، فاذا بالرجل يقفز خفيفا الى مقعد السائق ، على حين غرة ، قائلا له : « الحمدلله .. لسنا بعيدين عن احد المساكن . تحول الى اليمين : وهيا بنا ! » . فسأله الحوذى مغتاظا : « وماذا هنالك على اليمين ؟ وأين ترى الطريق ؟ .. أن الخيل ليست لك ، والعربة ليست لك ، وليس يهمك ان تموت الخيل أو تتحطم العربة ! »

وبدا لى أن السائق على حق ، فاعترضت على اقتراح الرجل قائلا : « هذا صحيح ، كيف تعرف ان هنالك مسكنا ؟ » . فأجاب الرجل موضحا : « أن الريح تأتى من هذه الجهة ، وانى لأشم فيها رائحة الدخان .. وهذا دليل على أن ثمة قرية ليست عنا ببعيدة » .

وأدهشتنى حدة ذكائه ، ورهافة شمه ، فأمرت الحوذى أن يتقدم . وسارت الخيل بمشقة ، وهى تغوص فى كل لحظة .. ولم تتقدم العربة الا فى كثير من البطء ، فكانت تارة تصطدم بكومة من الثلج ، وتارة تنزلق فى أخدود ، وهى فى كل الاحوال تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، كأنها قارب تتقاذفه الأمواج فى عرض البحر . وكان سافيليتش يزفر زفرات ملؤها الضيق ، ويرتطم بى فى كل لحظة .

واسدلت الستار ، وتلفعت بمعطفى ، وغفوت يهدهدنى غناء العاصفة وتموج العربة . فرايت فيما يرى النائم حلما لم استطع ان انساه فى حياتى ، وما زلت الى اليوم ارى فيه نوعا من النبوءة ، لاسيما حين اقرنه بالاحداث العجيبة التى كتب على أن اعيشها . وارجو ان يعذرنى القارىء ، فلعله يعرف بالتجربة أن الانسان محمول على الاعتقاد بالخرافات ، رغم احتقاره الشديد لجميع الاعتقادات السخيفة التى

تعشش فى عقول العامة .. وقد كنت فى تلك الحالة النفسية التى يتقهقر فيها الواقع أمام الحلم ويختلط به ، فتنشا من اختلاطهما هذه الرؤى المبهمه التى تراود المرء عند اول النوم ..

رأيت فيما يرى النائم أن الزوبعة مازالت تخرب ، واننا مازلنا نضرب فى صحراء يغطيها الثلج .. وفجأة رأيت بابا لدخول العربات ، فدخلنا ، فاذا نحن فى باحة منزلنا المنيف. وكان أول ماخطر ببالى هو أن اتحاشى غضب ابى الذى قد يلومنى على هذه العودة غير المقصودة ، اذ يؤولها بانها عصيان مقصود . فنزلت من العربة وانا اشد ما أكون قلقا ، فرأيت أمى تقبل على ، ووجهها يعبر عن كرب شديد . قالت: « **بهدوء ! .. أبوك مريض جدا . انه يحتضر ، ويريد أن يودعك الوداع الأخير ! »**

فصعقت من الذعر ، وتبعت أمى الى غرفة النوم . وكان الضوء فيها خافتا شاحبا ، فرأيت اناسا واقفين الى جانب السرير ، وقد تجهمت وجوههم حزنا . اقتربت على رؤوس الاصابع ، وازاحت أمى السجف ، وهى تنادى ابى بقولها : « اندريه بتروفتش .. بتروشا هنا .. لقد عاد حين علم انك مريض . ادع له ، وارض عنه ! »

فركعت ، ورفعت نظرى الى المريض . يا الهى ! .. لم أر أبى ، **بل رأيت فلاحا ذا لحية سوداء ، يحدق فى وهو يبتسم ابتسامة مرحة .** فالتفت نحو أمى مضطربا أقول : « مامعنى هذا ؟ ليس هذا ابى ! .. لماذا يجب على أن اطلب الرضى والبركة من هذا الفلاح ؟ » . فأجابت : « سيان يابتروشكا .. انه ابوك المتبنى .. قبل يده ، واطلب رضاه ! »

رفضت ان افعل .. عندئذ نهض الفلاح عن السرير قفزا ، واخذ يجوب الغرفة مشهرا فأسا . **وأردت ان اهرب فلم**

استطع . وامتلأت الغرفة بالجثث اتعثر بها وأغوص فى برك من الدماء . وناداني الفلاح بصوت حنون : « لاتخف ! .. تعال اطلب الرضى والبركه ! » . فاستيقظت من نومي وانا اشد ما أكون ذعراً ورعبا واضطرابا . وكانت الخيل قد توقفت ، وكان سافيليتش قد امسك بيدى وهو يقول : « انزل يا سيدى ، لقد وصلنا » . وسألته وانا افرك عيني : « الى أين وصلنا ؟ »

— الى المنزل .. لقد هدانا الله ، فسرنا على خط مستقيم حذاء سد ، حتى وصلنا الى هنا . هيا انزل ، وأذهب الى النار تستدفىء !

***

تركت العربة .. وكانت العاصفة لاتزال تزأر ، الا ان زئيرها قد خف . وكان الليل حالكا جد .. واستقبلنا صاحب البيت عند المدخل . وهو يمسك القنديل بيده ويحميه من الريح بطرف ثوبه . وقادني الى غرفة نظيفة . ولكنها ضيقة ، يضيئها مصباح ، وعلى حائطها علقت بندقية وقبعة قوزاقية .. فان صاحب البيت قوزاقى الأصل ، فلاح فى الستين من عمره ، نضر نشيط . ودخل سافيليتش يحمل صندوقى بيده ، وطلب نارا ليهيىء الشاى . وخيل الى أنه ما اشتهى الشاى فى حياته مثلما أشتهاه اذ ذاك ! .. ومضى الفلاح يحضر ما يجب تحضيره .

وسالت سافيليتش : « واين الدليل ؟ » . فأجاب صوت من فوقى يقول : « انى هنا يا سيدى النبيل » . فرفعت بصرى الى السقيفة ، فرأيت لحية سوداء ، وعينين براقتين .

— بردنا كثيرا ؛ أليس كذلك ؟

— وأى برد !.. لاسيما أننى لاارتدى الا هذا المعطف الملون

.. كانت لى فروة ، ولكنى لا أكتمك اننى رهنتها امس عند احد اصحاب الحانات . لم اكن اتوقع ان يكون البرد شديدا الى هذا الحد !

وفى هذه اللحظة ، دخل صاحب المنزل وهو يحمل ابريق الشاى يتصاعد منه البخار . فدعوت الدليل الى قدح من الشاى ، فترك السقيفة واقبل نحوى . وبدأ لى مظهره غريبا يلفت الانتباه .. **كان فى الاربعين من عمره ، ربع القامة ، نحيلا .. الا أن كتفيه عريضان ، وقد اشتعل الشيب فى لحيته السوداء .. وعيناه الواسعتان القويتان لاتستقران على حال ، وملامحه وسامة يشوبها مكر وخبث.**

وكان يرتدى معطفا ممزقا وسروالا كالحا . قدمت له قدحا من الشاى ، فلما ذاقه ، ارتسمت على وجهه ملائم التقزز وقال : « أيها السيد النبيل .. مر لى بقدح من الخمر،فليس الشاى شرابا لقوزاقى ! »

وبادرت فلبيت طلبه . فقام صاحب البيت الى خزانة صغيرة ، تناول منها زجاجةوقدحا ، ثم اقترب من الدليل ، يريد أن يسكب له الخمرة ، فاذا هو يقول وقد تفرس فى وجهه : **« أهذا أنت ؟ .. عدت الى هذه الأراضى ! .. من اين قذفتك الأقدار ؟ »**

ففمزه الدليل غمزة ذات معنى ، وأجاب يقول بامثال معماة : « كنت فى المزرعة ، وقنبا نقرت.. رمتنى الأم العجوز بحجر ، لكنها اخطأتنى . كيف حال جماعتكم ؟ » . فأجاب المضيف يكمل هذا الحوار الرمزى : « جماعتنا ؟ .. كانوا قد أخذوا يصلون صلوات العصر . الا ان الكاهنة منعتهم .. الكاهن فى زيارة ، والشياطين فى المقبرة !» . فأجاب المتشرد:

«. كفى ياعم !. حين تمطر السماء تنبت الكمأة ، ومن قال كمأة نال كمأة .. والآن (وهنا غمز بعينه) خبىء فأسك ؛ فالحارس غير بعيد ! .. أيها السيد النبيل ، اننى اشرب نخبك ! »

ثم تناول الكأس ، فصلب وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة . ثم حيانى . وقفز مرة أخرى الى السقيفة .

***

لم أفهم شيئا من حديث اللصوص هذا ، ولم أحرز الا فيما بعد أن الكلام كان يدور حول فرقة اليائيق القوقازية ، التى اخمدت ثورتها منذ مدة قصيرة (عام ١٧٧٢) . كان سافيليتش يصغى الى الحديث وقد لاح عليه الامتعاض . وراح يلقى على صاحب لبيت وعلى الدليل نظرات ارتياب .. كان النزل فى قلب الفيافى ، بعيدا عن كل قرية ، كأنه ملجأ عصابة من اللصوص . الا أنه لم يكن ثمة مجال للتردد ، ولا كان يمكن التفكير فى استئناف السفر . واضحكتنى مخاوف سافيليتش ، ثم نمت فوق مقعد طويل . ومضى سافيليتش يعتصم بمصطبة المدفأة ، وتمدد صاحب البيت على الأرض . ولم يلبث النزل أن امتلأ شخيرا مدويا ، واستغرقت فى نوم عميق ثقيل .

واستيقظت فى الصباح متأخرا ، فلاحظت أن العاصفة قد هدأت ، وأن الشمس تسطع. كان الثلج يفرش الأرض بساطا لامعا ممتدا الى الأفق . وكانت الخيل فى انتظارنا ، فدفعت لصاحب النزل ما طلبه من أجر .. وكان أجرا زهيدا ، لم يعترض عليه سافيليتش — على خلاف عادته — حتى لكأنه نسى ظنون الأمس . واستدعيت الدليل أشكره على

حسن صنيعه ، وأمرت سافيليتش أن يعطيه خمسين كوبك . فامتعض العجوز امتعاضا شديدا ، وقال : «خمسون كوبك ؟ لماذا ؟ .. الأنك تفضلت عليه فنقلته الى النزل بالعربة ؟ .. على رسلك ياسيدى ، فخمسيناتنا لاتزيد عن حاجتنا ، واذا نحن أخذنا نبذر دراهمنا ذات اليمين وذات الشمال فلن يبقى لنا مانسد به جوعنا ! »

ولم يكن فى وسعى أن اعترض ، فلقد وعدت سافيليتش أن يكون المال بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . ومع ذلك : كان يؤسفنى أن لا أستطيع أن اكافىء هذا الرجل الذى انقذنى من مأزق حرج ، ان لم يكن من كارثة. فقلت فى هدوء : «**حسنا . اذا كنت لاتريد أن تعطيه نقودا ، فاعطه شيئا من ملابسى ، فثيابه قليلة لاتقيه القر .. أعطه فرائى المصنوع من جلد الأرنب ، مثلا ! »**

فقال سافيليتش : « أوه ، باتوشكا بترو آندريفتش ! ما حاجته الى فرائك ؟ .. انه سيتركه فى أول خمارة ، هذا الكلب السكير ! » . فقال المتشرد : « هيه أيها العجوز ! .. ليس يعنيك أين اتركه . ان السيد النبيل قد « خلع على فراءه » ، تلك كانت مشيئة السيد ، وليس من شأنك أن تناقش ، وانما عليك أن تطيع كخادم أمين ! »

فأجاب سافيليتش بصوت يرتجف غضبا : «ألا تخاف الله أيها اللص ؟ .. الا ترى ان هذا الطفل لايفهم شيئا ؟ .. الا تستحى من استغلال سذاجته لتنهبه ؟ .. ثم ما حاجتك الى فراء صغير لاتستطيع أن تضعه على كتفيك وضعا ، فضلا عن ارتدائه .. ؟ » . فقاطعته قائلا : « كفى جدالا ، هات الفراء فى الحال !» . فتأوه سافيليتش قائلا : « يا الهى ! .. الفراء شبه جديد ، وليته يهبه لانسان محترم .. انه يهبه لسكير متشرد حافى القدمين ! »

وظهر الفراء مع ذلك .. وما لبث الفلاح (الموجيك) ان اخذ يجربه . والحق أن الفراء كان ضيقا على ، فكيف لايكون ضيقا عليه ؟ .. واستطاع مع ذلك أن يندس فيه ، معنفا اياه من جميع الجهات . ولم يجار سافيليتش . وبدا المتشرد راضيا كل الرضى عن هديتى ، فشيعنى حتى العربة، وانحنى يودعنى فى تحيه عميقة ، قائلا : «شكرا ايها النبيل ؛ جزاك الله عن كرمك خيرا . لن أنسى فضلك ما حييت ! »

ومضى الى سبيله . وتابعنا نحن رحلتنا . ولم التفت قط ى تأوهات سافيليتش ، وسرعان مانسيت عاصفة البارحة والدليل والفراء .

❁❁❁

فلما وصلت الى (أورنبرج) ، مضيت راسا الى بيت القائد اللواء . فرأيت رجلا فارع القامة ، مقوس الظهر بعض الشىء — من الشيخوخة — طويل الشعر أشيبه تماما ، تذكر بدلته العسكرية المهترئة الكالحة بالمحاربين فى عهد آنا ايفانوفنا (١) ، وفى لهجته لكنة المانية قوية .. وناولته رسالة أبى . وحين ذكر له أسمى ، القى على نظرة سريعة ، وقال : «ماشاء الله ! منذ مدة غير طويله كان آندريه بتروفتش فى سنك ، والآن أسبه له ولد كبير مثلك . الزمان ينكدى بسراة ! » (٢). وفض الرسالة ، واخذ يقراها بصوت مسموع ، مضيفا

---

(١) آنا ايفانوفنا : امبراطورة روسيا من ١٧٣٠ الى ١٧٤٠

(٢) يقصد : « منذ مدة غير طويلة ، كان اندريه بتروفتش فى سنك ، والان اصبح له ولد مثلك .. الزمان ينقضى بسرعة » .

اليها ملاحظات من عنده : «**عزيزى آندريه كاراوفتش : ارجو أن تكون سعادتك ..** » .. ماهذه التأزيمات والتفخيمات ؟ .. طبهـا ، النزام قبل كل شىء ، ولكن هل هكذا يخـاتب رفيك كديم ؟ (١) .. « **لعل سعادتك لم تنس..** » آه !.. « **الزمن .. المرحوم مارشال مونيد .. الفرقة .. وكذلك كاروليين ..** » آه ، انه مازال يذكر رذالاتنا الكديمة .. ولكن لنتهدث فى الأعمال ! (٢) .. « **أرجو ان ترفع يده عاليا** » . ما مانى هذا ؟ .. لاشك انه تأبير روسى كه ! (٣) .

قال ذلك ملتفتا الى يســالنى ، فاجبت وانا أصطنع غاية السذاجة والبساطة : «معناه أن يعامل المرء معاملة حسنة ، لاقسوة فيها ولا صرامة ، وأن يمنح اكبر قدر من الحرية . هذا هو معنى رفع اليد عاليا ! »

ــ ها ! فهمت ! .. « **وأن لاتمنحه كثيرا من الحرية** » .. لا ، لا . أتكد ان الابارة تأنى شيئا آخر (٤) .. «**تجد مع هذه الرسالة جواز سفره ..** » اين هو ؟ .. آه ، هذا هو ! .. « **ارجو ان تكتب الى سيمينوف..** » نام ، نام ، سنأمل كل شىء (٥) « **اسمح لى أن أقبلك بلا حرج ولا كلفة. صديقك القديم ورفيقك** » .. آه ، أنه يتذكر مأ ذلك ! (٦)

قال وقد قرأ الرسالة ووضع جواز السفر جانبا :

---

(١) « ما هذه التعظيمات والتفخيمات ؟.. طبعا ، النظام قبل كل شىء ، ولكن هل هكذا يخاطب رفيقا قديما ؟ »

(٢) « آه، انه ما يزال يذكر رذالاتنا القديمة . ولكن لنتحدث فى الاعمال!»

(٣) « ما معنى هذا ؟.. لاشك انه تعبير روسى قح ! »

(٤) « لا ، لا .. اعتقد ان العبارة تعنى شيئا آخر ! »

(٥) « نعم ، نعم .. سنعمل كل شىء » .

(٦) « آه ، انه يتذكر مع ذلك ! »

ـ والآن ايها الولد الشجاء ، سنأمل كل شيء . . سننكلك الى كتيبة « ن . . » برتبة دابت ، ولكى لا نديىء الوكت ، ستسافر منذ الغد الى هسن بيلوجورسكايا ، وتتأرف هناك الى رئيسك الجديد ، الدابت الرئيس ميرونوف ، وهو رجل تيب ومهترم . ستكون هناك فى الخدمة الفئلية ، وستتألم النزام . ليس لك شغل فى أورنبورج ، ولا يليك بشاب أن يبكى آتلا ان الأمل . واليوم تتغدى أندى ! (١)

قلت فى نفسى : « عال ، غال ! . . ماذا أفادنى ان سجلت رقيبا فى الحرس من قبل أن أولد ؟ . . الى اين اوصلنى هذا ؟ الى كتيبة ن . . فى حصن على حدود فيافى كرغيز ؟ ! »

وتغديت مع آندريه كارلوفتش ومساعده العجوز . وكان يسيطر على المائدة اقتصاد المانى قاس ، واغلب الظن أنه ما نقلنى الى الحصن الا خوفا من ان يرى ضيفا جديدا على مائدته وهو أعزب . واستأذنت القائد اللواء فى الغد ، واستأنفت سفرى الى المكان الذى عين لى .

---

(٢) « والآن ، ايها الولد الشجاع ، سنعمل كل شيء . . سننقلك الى كتيبة «ن . .» برتبة ضابط . ولكى لا نضيع الوقت ، ستسافر منذ الغد الى حصن بيلوجورسكايا ، وتتعرف هناك الى رئيسك الجديد ، الضابط الرئيس (الكابتن) ميرونوف . وهو رجل طيب ومحترم . ستكون هناك فى الخدمة الفعلية ، وستتعلم النظام . ليس لك شغل فى اورنبورج ، ولا يليق بشاب ان يبقى عاطلا عن العمل . واليوم تتغدى عندى ! »

(٣) ابنة آمر الحصن !

« نعيش فى حصن ،
« طعامنا الخبز ، شرابنا الماء ،
« ان جاءنا يوما عدو كاسر ،
« ينازعنا طعامنا ،
« اقمنا له وليمة من نيران المدافع »
من اغانى الجنود

• **يقع** حصن (بيلوجورسكايا) على بعد أربعين فرسخا من (أورنبورج) ، ويمتد الطريق اليه على حافة نهر (اليائيق) الصخرية . ولم يكن الجليد قد بلغ النهر بعد ، فكانت المياه تتدفق بين حافتيه المكسوتين بالثلج حزينة بلون الرماد . ووراء الضفة الثانية كانت تمتد فيافى (كرغيز) .

وغرقت فى تأملات حزينة .. لم يكن فى حياة الثكنة ما يجذبنى البتة . وحاولت أن أتصور الضابط « ميرونوف » ـ رئيسى المقبل ـ **فتخيلته عجوزا ، قاسيا صارما ، لايعرف شيئا غير عمله العسكرى ، ويستطيع أن يعاقب على أقل هفوة بالصيام على الخبز والماء** . وجاء المساء وأنا غارق فى هذه التأملات ، فقد كنا نسير بسرعة .. فسألت الحوذى : « هل الحصن بعيد ؟ »

ـ بل هو ذا ! .. لقد وصلنا !

فالتفت الى جميع الجهات ، وأنا اتوقع ان ارى فوهات مسددة ، وسورا ، وقلاعا .. ولكننى لم ار الا قرية صغيرة ، محاطة بحاجز من جذوع السنديان . ورأيت فى احدى الجهتين ثلاثة أو أربعة بيادر من العلف غطاها الثلج ، وفى الجهة الاخرى طاحونة مائلة الى الجانب، متراخية الاجنحة فى كسل . **فسألت فى دهشة : « وأين الحصن ؟ »** . **فأجاب**

السائق ، وهو يشير الى القرية التى لم نلبث ان دخلناها : « هو ذا الحصن ! »

كان على مدخل القرية مدفع قديم من الصلب .. والشوارع ضيقة متعرجة ، والبيوت مجعدة ، سقوفها من قش !.. وامرت السائق أن يذهب بى الى منزل آمر الموقع ، فما هى الا لحظة حتى وقفت العربة أمام بيت خشبى ، مبنى على مرتفع غير بعيد من الكنيسة .

ولم يأت أحد لاستقبالى ، فدخلت الدهليز ، وفتحت الباب المؤدى الى الحجرة الأولى ، فرأيت عجوزا مقطوع الساق ، جالسا الى طاولة ، يرقع الكوع من بدلته العسكرية الخضراء بقطعة من نسيج ازرق ، فامرته أن يستأذن لى بالدخول ، فقال : « ادخل يابنى ، ان جماعتنا فى البيت ! » .. فدخلت . واذا انا فى غرفة نظيفة ، مؤثثة على الطراز القديم ، فى ركن منها خزانة للأوانى ، وعلى أحد جدرانها علقت شهادة ضابط ذات اطار ، وعلى الجانب صور منقوشة نقشا سيئا ، تمثل الاستيلاء على كوسترين واوتشاكوف ، ثم لوحة « اختيار خطيبة » ، ولوحة « جنازة قطة » .. والى جوار النافذة جلست امرأة ترتدى معطفا مبطنا بفراء ، وعلى رأسها وشاح ، آخذة بلف « شلة » من الخيطان ، أمسكها أمامها — بيديه المتباعدتين — رجل مسن قصير أعور ، يرتدى لباس ضابط .

وسألتنى المرأة دون أن تقطع عملها : « ماذا تريد يابنى ! » . فأجبت بأننى — وقد عينت فى الحصن — جئت أقدم نفسى للسيد الضابط ، وفقا لمايقتضيه الواجب . والتفت — وانا أقول هذا الكلام — نحو العجوز الأعور ، اظنى انه هو الآمر . الا ان صاحبة البيت قاطعت كلامى المهيأ ، قائلة : « لقد خرج ايفان كوزمتش .. ذهب يزور الأب جراسيم . ولكن سيان ،

فأنا امراته ، وآمل ان نصبح اصدقاء . اجلس يابنى ! »
ثم نادت الخادم ، وامرتها ان تدعو الوكيل . وأدار العجوز القصير نحوى عينه الوحيدة ، ورمقتنى بنظرات مستطلعة . وقال : «هل تسمح الى ان أسألك : فى اية فرقة كانت خدمتك العسكرية ؟ » .. فأرضيت حبه للاستطلاع !
ــ وهل اجرؤ ان اسألك ، لماذا تركت الحرس ، وكيف صرت الى ثكنة فى الريف ؟
فأجبته بأن مشيئة رؤسائى كانت كذلك .. فأضاف السائل الذى لايكل ولا يمل : « ربما لأمور لاتتفق ومكانة ضابط فى الحرس ! » .. فقالت الآمرة : « كفى ثرثرة ! .. الا ترى ان الفتى قد وصل منذ هنيهة ؟ .. لاشك أنه ميت من التعب ، ولا يتسع وقته للاهتمام بك والاجابة على اسئلتك . الاحسن من هذا ، ان تزيد فى مد يديك الى أمام ! » . واستأنفت تقول ملتفة نحوى :
ــ وأنت يابنى ، لايحزنك انك ارسلت الى هذا المكان المنعزل .. لست الأول ولا الأخير .. ستتعود ! انظر الى « شفابرين الكساى ايفانوفتش » ! .. لقد نقل الى هنا منذ خمس سنين لقتله أحد الضباط . ذهب مع أحد الملازمين الى ظاهر المدينة ، واصطحب كل منهما سيفه ، وظلا يتضاربان الى ان بقر شفابرين بطن الملازم .. وكان ذلك بحضور شاهدين .. هذه هى الدنيا ، فماذا تريد ؟
وفى هذه المحظة ، دخل الوكيل .. وهو قوزاقى شاب ، حسن الهندام . فقالت له الآمرة : « مكسيمتش ، ابحث عن مسكن لحضرة الضابط ، وليكن نظيفا ! »
ــ أمرك مطاع يافاسيليسا ييجوروفنا . مارأيك فى أن نسكن صاحب النبالة عند ايفان بوليائيف ؟
ــ أنت تهرف ياعزيزى .. ليس فى بيت بوليائيف مكان .

نم أن بوليائيف قريبى ، وهو لاينسى ابدا اننا رؤساؤه .. لا ، الأفضل ان تقود حضرة الضابط .. ما أسمك يابنى ؟

ــ بترو اندريفتش ..

ــ الأفضل ان تقود بترو اندريفتش الى بيت سيمون كوزوف .. ان هذا السافل قد ترك حصانه يطوف فى بستانى . هل كل شىء هادىء يامكسيمتش ؟

فأجاب القوزاقى : «كل شىء هادىء ، بحمد الله ، عدا ان العريف بروخوروف قد تشاجر بالحمام ــ امس ــ مع اوستينيا نيجولين ، على دلو من الماء الساخن » .

قالت الأمرة ملتفتة الى الضابط الأعور : «ايفان اجناتتش ، أحضر بروخوروف وأوستينيا ، وانظر ايهما المذنب وايهما البرىء ، وعاقبهما معا . وأنت يامكسيمتش ، تستطيع أن تذهب .. بترو اندريفتش ، سيدلك مكسيمتش على مسكنك ! »

فحييت الآمرة .. وقادنى الضابط الى دار (كوزوف) ، وهى قائمة على مرتفع فوق النهر فى آخر الحصن .

***

كانت اسرة « كوزوف » تشغل نصف البيت ، فوضعوا النصف الآخر تحت تصرفى ، وهو غرفة نظيفة ، يقسمها حاجز الى غرفتين . وجعل سافيليتش يعنى بترتيب الاشياء ، بينما اخذت أسرح النظر من خلال نافذة ضيقة .. كانت الفيافى الحزينة تمتد امامى الى مدى البصر ، وبعض البيوت ترى من الجانب ، ودجاجات تهوم فى الشارع ، وامرأة عجوز واقفة على درجات باب البيت تنادى الخنازير ــ وفى يدها معلف ــ والخنازير تجيب نداءها بهمر ودى . فى بلد كهذا كتب على أن اقضى صباى ؟ .. وتملكنى سأم عميق ، فتركت مرصدى ،

ومضى الى سبيله .. وتابعنا نحن رحلتنا ..

(ص ٢٨)

ونمت دون عشاء ، رغم الحاح سافيليتش فى محاولة اقناعى بضرورة الطعام . فكان لاينفك يردد قائلا : « ياالهى ! انه لايريد ان يأكل شيئا ! .. ماعسى أن تقول سيدتى اذا وقع ابنها مريضا ؟ »

وما كدت ابدأ فى الصباح بارتداء ثيابى ، حتى فتح الباب ودخل ضابط شاب ، ليس بالطويل ، اغبر الوجه دميمه جدا ، على حيوية ونشاط .. فقال يخاطبنى بالفرنسية : « أعذرنى اذا أنا جئت أتعرف اليك بلا حرج ولا كلفة ! .. لقد علمت بوصولك أمس ، فاذا الرغبة فى ان ارى - اخيرا - وجه انسان ، تملك على مشاعرى ، فما استطعت أن أحبس نفسى عن المجىء . ستبرر سلوكى هذا بعد ان تقضى هنا بعض الوقت ! »

حزرت انه الضابط الذى طرد من الحرس لأنه قاتل فى مبارزة . وسرعان ماتعارفنا .. ولم يكن بالغبى . وأن حديثه لمرح رشيق فكه .. واخذ يصف - فى كثير من السخر اللاذع - أسرة الآمر ، وسكان المنطقة ، وهذا البلد الذى ساقنى اليه القدر . وكنت أضحك من اعماق قلبى ، عندما دخل ذو الساق المقطوع ، الذى كان يرقع بالأمس بدلته العسكرية فى مدخل بيت الآمر ، فدعانى باسم « فاسيليسا ييجوروفنا » الى طعام الغداء ، وعرض على « شفابرين » أن يصحبنى .

وحين اقتربنا من بيت الآمر ، رأينا - فى ساحة صغيرة - مايقرب من عشرين رجلا من مشوهى الحرب ، ذوى ضفائر طويلة ، قد انتظموا فى صف واحد . ورأينا الآمر واقفا امامهم ، وهو عجوز فارع القامة رشيق ، على رأسه طاقية ، ويرتدى ثوب المنزل . فلما رآنى اقبل علينا ، وقال لى بضع كلمات ودية ، ثم عاد الى تدريبه . فوقفنا ننظر اليه ، غير انه رجانا أن نمضى الى فاسيليسا ييجوروفنا ، قائلا انه سيتبعنا

بعد قليل. ثم أضاف : «ليس ها هنا مايستحق أن يرى ! »
واستقبلتنا فاسيليسا ييجوروفنا ببساطة ومودة ، وعاملتنى معاملة من يعرفنى منذ زمان طويل ، وأخذ ذو الساق المقطوعة و « بالاشكا » ــ الخادم ــ يهيئان المائدة .
وقالت الآمرة : « ان صاحبنا ايفان كوزمتش يقوم بالتدريب .. يا بالاشكا . قولى لسيدك ان الطعام قد هيىء .. ولكن اين ماشا ؟ »

وفى هذه اللحظة ، دخلت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، مدورة الوجه ، وردية الوجنتين ، شعرها الأشقر مسدل الى وراء .. ولم تعجبنى كثيرا فى أول الأمر . . فنظرت اليها فى نوع من الادعاء . وكان شفابرين قد وصف لى « ماشا » ــ ابنة الضابط الرئيس ــ على انها فتاة غبية حمقاء !
وجلست « ماريا ايفانوفنا » (١) فى ركن من الغرفة ، وأخذت تخيط . وفى أثناء ذلك ، صب الحساء فى الصحون . فلما رأت فاسيليسا ييجوروفنا أن زوجها لم يصل بعد ، ارسلت «بالاشكا» مرة اخرى تستحثه على المجيء ، قائلة : « قولى لسيدك ان الضيوف ينتظرون ، وان الحساء يوشك أن يبرد . الحمدلله على أن التدريب ليس بالمستعجل ، فالوقت أمامه طويل لبح صوته ! »
وما هى الا لحظة ، حتى ظهر الضابط الرئيس ، يتبعه الضابط الأعور . فقالت له امرأته : « ما هذا يا عزيزى ؟ .. ان الطعام على المائدة منذ مدة طويلة ، ولم نتوصل الى احضارك الا فى هذه اللحظة ! » . فأجاب ايفان كوزمتش : « ولكنك تعلمين يا فاسيليسا ييجوروفنا أننى اقوم بواجبى ، وادرب جنودى الشجعان ! » . فردت الآمرة : « كفى ، كفى

(١) الاسم الكامل لابنة آمر الحصن .

.. هذا كلام ! .. أن جنودك لن يتوصلوا الى تعلم الخدمة العسكرية ، وانت نفسك لاتفقه منها شيئا . خير لك أن تبقى فى البيت ، وأن تصلى ! .. ايها الضيوف نرجوكم ان تشرفونا ! »

***

واذ جلسنا الى المائدة ، لم تنقطع فاسيليسا عن الثرثرة لحظة واحدة ، وأغرقتنى بسيل من الأسئلة : من هما أبواى ، هل هما على قيدالحياة ، أين يقطنان ، ماهى حالتهما المالية ؟ .. فلما علمت ان أبى يملك ثلاثمائة نفسا ، قالت : « مازال فى الدنيا أناس اغنياء ! .. اما نحن يابنى ، فلا نملك الا خادمة واحدة ، هى البنت بالاشكا .. على اننا نعيش حياة لابأس بها والحمدلله ! .. ليس هناك الا شيء واحد يقلقنا ، هو أن ماشا فى سن الزواج ، وماعسى نستطيع أن نقدم لهامهرا ؟.. مشطا ، ومقشة ، ومبلغا ضئيلا قدره ثلاثة كوبيكات ، أى مايكفى للذهاب الى الحمام ؟ .. هذا اذا وجدنا لها عريسا لائقا ، و الا ظلت عانسا الى آخر ايامها ! »

نظرت الى ماريا ، فاذا هى قد تضرجت بحمرة شديدة ، وهطلت من عينيها دموع على الصحن . فأشفقت عليها ، وسارعت الى تغيير مجرى الحديث .

قلت فى غير مناسبة : « سمعت أن الباشكير كانوا ينوون مهاجمة حصنكم » . فسألنى ايفان كوزمتش يقول : « أين سمعت هذا يابنى ؟ » . فأجبت : «ذكر لى فى أورنبورج» . فأجاب الآمر : « هذا خطأ ، اننا لا نرى شيئا فى هذه المنطقة منذ مدة طويلة .. لقد عرفنا كيف نخيف الباشكير ، وأما الكرغيز فقد أعطيناهم درسا ، فلن يجرأوا أن يهاجمونا بعد الآن .. واذا حدث هذا يوما ، فلسوف استقبلهم استقبالا

يثيبهم الى رشدهم لعشر سنين على الأقل ! »

فقلت متجها الى امرأته : «ألا تخافين من الاقامة فى حصن تهدده هذه الأخطار ؟ » . فاجابت : « لقد تعودت يابنى .. حين أوفدنا الى هنا منذ عشرين سـنة ، كنت أرهب هؤلاء الكفرة رهبة فظيعة.. كان يكفينى ان المح طاقياتهم المصنوعة من جلد الثعلب ، وأن أسمع زئيرهم ، حتى يخفق قلبى خفقانا شديدا ! .. اما الآن ، فقد تعودت حتى صرت لا اتحرك من مكانى اذا جاء أحـد يقول ان هؤلاء الجنـاة يحومون حول البلدة ! » .. فقال شـفابرين فى لهجـة جدية الغاية : « ان فاسيليسا ييجوروفنا سيدة شجاعة . يشهد بذلك ايفان كوزمتش ! » . فقال ايفان كوزمتش : « طبعا ، طبعا ! .. لاترف لها عين ! »

فسألتها : «وهل ماريا ايفانوفنا فى مثل شجاعتك ؟ » . فأجابت الأم : « فى مثل شجاعتى ؟ .. لا ، لا .. ان ماشا شديدة الفزع . انها — حتى هذا اليوم — لم تستطع أن تسمع طلقة بندقية دون أن ترتعد . وحين أمر ايفـان كوزمتش منذ سـنتين — فى الاحتفـال بعيد ميلادى — باطلاق نيران المدفع ، كادت تموت جزعا .. ومنذ ذلك الحين أصبحنا لانقارب المدفع اللعين ابدا ! »

ونهضنا عن المائدة ، فمضى الضابط الرئيس مع زوجته ليناما قليلا ، وذهبت أنا مع شـفابرين أقضى فى بيتـه بقية النهار .

(٤) مبارزة من اجل فتاة !

« لك ما تشاء ، هيا استعد !
« سترى كيف ابقر جلدك ! » ـ كنياجنين

• **انقضت** بضعة أسابيع .. وبدأت أشعر ان اقامتى فى (بيلوجورسكايا) ليست محتملة فحسب ، بل مليئة كذلك بالمتعة والسرور . كانت أسرة الآمر تستقبلنى كأننى احد اقربائها .. وكان الزوج وزوجه شخصان محترمان : الزوج « ايفان كوزمتش » ابن جندى بسيط ، وقد توصل بجده الى رتبة ضابط .. وهو ضئيل الثقافة الا انه طيب وشريف ، و ــ بطبيعته ــ ضعيف الشخصية ، فكانت تقوده امرأته. وكانت «فاسيليسا ييجوروفنا» تنظر الى الخدمة العسكرية نظرتها الى أعمال بيتها ، وتدير الحصن كما لوكان الأمر أمر منزلها الشخصى. **اما ماريا ايفانوفنا ، فان نفرتها منى ما لبثت أن زالت ، وتوطد بيننا التعارف ، فرأيت انها فتاة عاقلة .. بل وعاطفية !**

وازداد تعلقى بهذه الأسرة الشريفة شيئا بعد شىء ، وفى عدادها « ايفان آجناتتش » ، الملازم الأعور الذى ذكر لى « شفابرين » انه عشيق « فاسيليسا ييجوروفنا » .. **وهى تهمة باطلة ليس لها ظل من حقيقة ، الا أن شفابرين لم يكن يزعجه أن يلفق مثل هذه الأقاويل البسيطة ! ..**

ورفعت الى رتبة ضابط .. ولم تكن الخدمة مرهقة البتة ، فليس فى هذا الحصن ــ الذى يحرسه الله ــ تفتيش ولاتدريب ولا اعمال حراسة. كان الآمر يدرب الجنود قليلا ، من حين الى حين ، بدافع من نفسه . الا انه لم يكن قدتوصل بعد الى أن يعلم جميع جنوده تمييز اليد اليسرى من اليد

اليمنى ، رغم أن بعضهم كان يطلب قبل أن يدور حتى لايخطىء ! . . وكان شفابرين يملك عددا من الكتب الفرنسية ، فأخذت اقرأ . . وما لبثت ان شعرت بميل الى الأدب ، فكنت اقضى الصباح اترجم ، وأنظم فى بعض الأحيان شعرا . وكنت فى كل الايام ــ تقريبا ــ أتناول طعام الغداء على مائدة الآمر ، وأقضى فى بيته بقية النهار . وكان الأب « جراسيم » يأتى لقضاء السهرة فى بعض الأحيان ، تصحبه زوجته « آكولينا بامفيلوفنا » ، وهى اول من كان يحمل انباء المنطقة ويذيعها . وطبيعى أننى كنت ألقى « الكسى ايفانوفتش شفابرين » فى كل يوم ، الا أننى صرت ازداد برما بحديثه ، يوما بعد يوم ، وأصبحت أرى سخرياته من أسرة الآمر فى غير محلها ، لاسيما ملاحظاته الهازئة بصدد « ماريا ايفانوفنا » ..

ولم يكن فى الحصن غير هذا المجتمع ، الا اننى كنت لا اطمع فى أحسن منه .

***

ولم يثر « الباشكير » ، رغم نبوءات القائد اللواء . وكان الهدوء مهيمنا على المنطقة بأسرها ، الا ان السلام قد انقطع نجأة بخصومة داخلية :

ذكرت لكم شيئا عن مشاغلى الأدبية . . وقد تبين أن هذه القرزمات (١) كانت مرضية فى حينها ، حتى أن الكسندر بتروفتش سوماروكوف قد تحدث عنها ــ بعد بضع سنين ــ فى كثير من الثناء والتقريظ . واستطعت ــ فى ذات يوم ــ ان أؤلف نشيدا ، وكنت راضيا عنه كل الرضى .. وانتم تعلمون ان الشعراء يبحثون دائما عن مستمع ينشدونه

---

(١) يبدو ان المقصود بهذا المصطلح «المحاولات» أو «المقالات» .

قصائدهم ، زاعمين انهم يسألونه بعض النصائح . وهكذا نسخت قصيدتى ، وحملتها الى شفابرين ، وهو الشخص الوحيد الذى يستطيع فى هذا الحصن ان يقدر مزايا هذا النوع من الانتاج . ثم قرأتها عليه ، بعد تمهيد مناسب :

« أود .. ياحبيبتى أن أنساك .. بالابتعاد عنك ،
« وأن لا أعود أفكر فيك ،
« أن أكون حرا ، ولكن ..
« يا لهاتين العينين ، تطلان على .. فى كل لحظة ،
« فاذا روحى مضطربة .. لايعرف السلام اليها سبيلا .
« ليتك تعلمين ما أعانى من برح ..
« آه يا ماشا ! .. رفقا بى ،
« يا من أسرت قلبى ! »
ـ ما رأيك ؟

طرحت على شفابرين هذا السؤال ، وأنا انتظر الثناء .. على انه شىء من حقى . الا أن شفابرين ، وهو السمح المتساهل فى العادة ، أعلن بلهجة قاطعة ـ على أسف منى ـ أن القصيدة لاقيمة لها البتة . فقلت ، وأنا أخفى انزعاجى : «لماذا؟» .. قال : «لأن مثل هذه الأشعار خليقة بأستاذى المرحوم فاسيلى كيريليتش تردياكوفسكى (١) ، وهى تذكرنى بثنائياته الغزلية » .

ثم تناول الدفتر من يدى ، وأخذ يجرح كل قصيدة من قصائدى ، ويسخر منها سخرا لاذعا ، لا رحمة فيه ولا شفقة . فلم أستطع ان اكظم غيظى ، فانتزعت الدفتر من يده ، معلنا اننى لن أطلعه فى حياتى على شىء مما أنظم ..

---

(١) احد اوائل الشعراء الروس (١٧٠٣ ـ ١٧٦٩) ، وقد اصبح اسمه يعنى الشاعر الاخرق الدعى .

واضحكه هـذا التهديد . فقال : « سنرى هل تلتزم هذا الكلام ! .. ان حاجة الشعراء الى مستمع : كحاجة ايفان توزمتش الى ابريق من « الفودكا » قبل الطعام . ثم من هى ماشا هذه التى تبوح لها بغرامك ، وتبثها شجونك وآلامك ؟ لعلها ماريا ايفانوفنا ؟ »

فأجبت وانا أقطب حاجبى : « هذا لايعنيك ! .. ماطلبت رايك ، ولا سألتك أن تحزر من هى ماشا .. هـذه ! » . فقال وقد ازداد حنقى :

ـ على رسلك ايها الشاعر الطموح ، والعاشق المتواضع ! .. اليك هذه النصيحة يسوقها صديق مخلص : اذا اردت ان تظفر بها ، فتوسل بغير القصائد !

ـ ماذا تعنى بهذا ايها السيد ؟ .. أوضح !

ـ بكل سرور !..اعنى أنك اذا اشتهيت أن تزورك «ماشا ميرونوفا» عند المغيب ، فان قرطا تهديه اليها ، أنجع فى ذلك من قصائدك الغزلية الرقيقة !

وغلى الدم فى عروقى .. وسألته ، وانا لا أكاد أستطيع كظم غيظى : « لماذا ترى فيها هذا الرأى ؟ » . فأجاب وهو يبتسم ابتسامة خبيثة : « لأننى اعرفها بالتجربة ! » .. فصرخت فى حنق شديد : « كاذب .. وقح ! »

فامتقع لون شفابرين . وقال وهو يشد على ذراعى : «لن يمر هذا الأمر بسلام . اننى أدعوك الى المبارزة ، فأرجو أن تستجيب للدعوة ! »

ـ كما تشاء ، وفى أى وقت تشاء !

قلت ذلك وانا أشعر بسرور كبير .. كنت على استعداد ـ فى هذه اللحظة ـ لأن أمزقه اربا .

***

ومضيت فورا الى «ايفان اجناتتش» ، فرأيت بيده ابرة ، لأن الآمر كلفه بنظم حبات الكمأة ، مئونة للشتاء (١) . فقال حين رآنى : « آه ، بترو اندريفتش ! .. اهلا وسهلا ، هل استطيع أن أعرف سبب تشريفك اياى بالزيارة ؟» . فذكرت له — ببضع كلمات — اننى تشاجرت منذ هنيهة مع الكسى ايفانتش ، واننى أرجوه أن يكون ، هو ايفان اجناتتش ، شاهدى فى المبارزة . . فأصغى الى كلامى بانتباه شديد ، وهو يحدق فى بعينه الوحيدة . وقال مجمجما :

— تريد أن تقول انك تنوى أن تغمد سيفك فى جسمه ، وانك تريد أن أحضر هذا بصفتى شاهدا ؟ .. أهذا ما أردت ان تقوله ، ان جاز لى أن أطرح هذا السؤال ؟

— نعم .

— اسمع يابترو اندريفتش ، ما هذا الكلام الفارغ ؟ .. لقد تشاجرت مع الكسى ايفانتش ، فيالها من فاجعة ! .. ان الألفاظ يابنى لاتقتل ! .. **ان كان قد شتمك فاشتمه ! .. وان كان قد صفعك على وجهك ، فاصفعه على أذنيه مثنى وثلاث !** .. ثم تفترقان . وواجبنا نحن بعد ذلك أن نصلح بينكما ! . . اما أن يقتل المرء قريبه ، فاللهم لا ! .. ثم ان الأمر يهون اذا انتصرت انت . اننى لا احب «الكسى ايفانتش» هذا ، عفا الله عنه !.. ولكن أية فاجعة تمنى بها ، اذا انتصر هو عليك ، وأغمد سيفه فيك ؟ .. من ذا الذى يكون قد غرر به عندئذ ، ان جاز لى أن أسأل هذا السؤال ؟

ولم يستطع منطق الملازم الطيب ان يزعزع ما عزمت عليه ، فأصررت على رأيى . وقال ايفان اجناتتش : « لك

---

(١) الكماة نبات فطرى يشبه عيش الغراب ، يجفف وينظم فى عقود — كما يفعل بالبامياء عندنا — ليستعمل فى الشتاء .

ماتشاء.. افعل مايبدو لك !.. ولكن ما حاجتك الى شاهد ؟ .. وبم يفيدك هذا ؟.. يا لها من معركة عجيبة ! شيء جميل ! .. ان جاز لى ان اقول ذلك ! .. لقد رأيت معارك أخرى كثيرة ، بحمدالله .. تقاتلت مع الأتراك والسويديين ! »

وحاولت أن أوضح له وظائف الشاهد بكل الوسائل ، الا ان ايفان اجناتتش لم يستطع ان يفهمنى .. وقال أخيرا : « اذا اردت ان أتدخل فى هذا الأمر ، فلعل الأحسن أن أمضى الى ايفان كوزمتش ، اخبره بأن ثمة امرا مخالفا لمصالح الدولة يدبر فى هذا المكان ، ولاشك ان حضرة الآمر سيتخذ عندئذ ماينبغى اتخاذه من اجراءات » .

فخفت ، وتوسلت اليه ان لايخبر الآمر بذلك. ولم استطع اقناعه الا فى كثير من العناء ، فقطع على نفسه عهدا بان لايخبر الآمر ، وقررت ان ادعه وشأنه .

وقضيت السهرة ، على عادتى ، فى بيت الآمر ، حتى لا اثير اى ارتياب ، وحتى اتحاشى الأسئلة الفاضحة .. وحاولت ان اظهر مرحا طليقا ، ولكننى أعترف بأننى لم أستطع أبدا ان أكون هادئا ، ذلك الهدوء الذى يعتز به معظم الذين يكونون فى مثل حالتى .

وكنت فى ذلك المساء افيض حبا وحنانا. واعجبتنى « ماريا ايفانوفنا » أكثر من أى وقت مضى . ثم تصورت أن لقاءنا هذا المساء قد يكون اللقاء الأخير ، فاضفى عليها هذا كثيرا من الفتنة المؤثرة . وجاء شفابرين ، فانتحيت به جانبا أبلغه نتائج حديثى مع ايفان اجناتتش ، فقال فى جفاف وخشونة :

« ما حاجتنا الى شهود ؟ .. سنستغنى عن الشهود ! »

حزمنا امرنا ، واتفقنا على ان تكون المبارزة فى صباح الغد ، قبل الساعة السابعة ، وراء البيادر غير بعيد عن الحصن .

وقد اصطنعنا أثناء الحديث هيئة ودية جدا ، حتى ان « ايفان اجناتتش » ـ حين رآنا ـ لم يملك أن يمنع نفسه عن الهتاف مسرورا .. وقال وقد فاض وجهه بشرا : « مرحى ! لتسوية سيئة خير من مبارزة حسنة ! .. ما فائدة الشرف حين يبقر البطن ! »

فقالت الآمرة وهى تجر الخرائط الى ركن من الغرفة : « ماذا تقول يا ايفان اجناتتش ؟ .. اننى لم أفهم » .

فلما رآنى ايفان اجناتتش أجهم وجهى ، تذكر وعده : فاضطرب ولم يعرف بم يجيب . فهب شفابرين الى نجدته قائلا : « **ان ايفان اجناتتش يهنئنا على المصالحة** » .

ـ ومع من تشاجرت يابنى ؟

ـ لقد تشاجرنا ـ انا وبترو اندريفتش ـ مشاجرة عنيفة .

ـ لماذا ؟

ـ أوه ، بسبب تافه ، بسبب أغنية ، يا فاسيليسا ييجوروفنا !

ـ ياله من سبب وجيه للمشاجرة ! .. أغنية ! .. وكيف حدث ذلك ؟

ـ لقد ألف بترو اندريفتش منذ مدة قصيرة أغنية ، وانشدنى اياها هذا الصباح ، فأخذت انا ادندن اغنيتى المفضلة :

« يا ابنة الضابط الرئيس ..
« لاتتجولى عند منتصف الليل ! »

« فلم يرق هذا لبترو اندريفتش ، فغضب واحمر وجهه . الا انه لم يلبث ان فهم ان كل انسان حر فى ان يغنى مايحلو له غناؤه . ووقف الأمر عند هذا الحد ! »

وكادت وقاحة شفابرين أن تخرجنى عن تجلدى وهدوئى ،

ولكن احدا غيرى لم يفهم غمزاته الخبيثة ، أو ـ على الأقل ـ لم ينتبه اليها أحد . وانتقل الحديث من الأغانى الى الشعراء بوجه عام ، فذكر الآمر أنهم جميعا اناس طائشون سكيرون ، ونصحنى باسم الصداقة أن أدع الشعر ، فالشعر لا يتفق مع الخدمة العسكرية ولا يفضى الى خير .

وكان وجود شفابرين ثقيلا على نفسى لا يطاق ، فاستأذنت الآمر وأسرته بالذهاب . وعدت الى منزلى ، فتفقدت سيفى ، وفحصت حده ، ثم نمت بعد أن أمرت سافيليتش بان يوقظنى قبل الساعة السابعة .

***

وفى الساعة المعينة من الغداة ، كنت وراء البيادر . وماهى الا برهة وجيزة حتى ظهر شفابرين . فقال : « لنسرع ، قبل ان يأتى أحد ! »

فخلع كل منا بدلته العسكرية . وما كدنا ننتضى سيفينا حتى رأينا ايفان اجناتتش يظهر من وراء احد البيادر ، يصحبه خمسة جنود من مشوهى الحرب ، ثم يأمرنا بان نتبعه الى منزل الآمر . كان لابد لنا من أن نطيع ، فسرنا يحيط بنا الجنود ، ويتقدمنا ايفان اجناتتش يسير بخطى الظافر ، وقد اكتسى وجهه هيئة جادة وقور .

ووصلنا الى بيت الآمر ، ففتح ايفان اجناتتش الباب ، وقال بصوت فخم : « ها هما ! » . فاقبلت علينا فاسيليسا يجوروفنا تقول : « ياالهى ! .. ماهذا ؟ أجريمة قتل فى حصننا ؟ .. ايفان كوزمتش ، اسجنهما حالا ! .. بترو اندريفتش ، الكسى ايفانتش ، الى بسيفيكما فورا ! .. هات سيفك ، هات سيفك ! .. بالاشكا ، خذى هذين السيفين الى المستودع .. بترو اندريفتش ، ماكنت اتوقع منك هذا ! ..

انه يليق بالكسى ايفاننش ، الذى طرد من الحرس لارتكابه جريمة قتل ، وهو ملحد لايؤمن بالله .. ولكن أنت ؟ .. هل تريد أن تقتفى أثره ؟))

وبدا على ايفان كوزمتش أنه يوافق زوجته كل الموافقة . اذ قال : « فاسيليسا ييجوروفنا على حق ! .. ان القانون العسكرى يمنع المبارزات منعا باتا » .. وفى أثناء ذلك ، كانت بالاشكا قد أخذت السيفين وحملتهما الى المستودع . ولم استطع ان احبس ضحكى ، الا أن شفابرين احتفظ بجده ، وقال يخاطب الآمرة فى جفاف : «رغم ما أكنه لك من أحترام، فانتى لا استطيع ان اعفى نفسى من لفت نظرك الى أنك مخطئة فى الاهتمام بهذا الامر..دعى ايفان كوزمتش يتصرف على النحو الذى يراه ، فالقضية لاتعنى أحدا غيره ، وليس لأحد ان يتدخل فيها سواه ! »

ـ ولكنك تعلم يابنى ان الزوج والزوجة جسم واحد ، وروح واحد ؟ .. وانت يا ايفان كوزمتش ، ماذا تنتظر ؟.. هيا اسجن كلا منهما فى مكان ، وليصوما ـ الا عن الخبز والماء ـ الى ان يثوبا الى رشدهما ، فيفرض عليهما الأب جراسيم الكفارة ، فيطلبا عفو الله ومغفرة البشر !

لم يعرف ايفان كوزمتش بم يجيب .. وكانت ((ماريا ايفانوفنا)) شاحبةالوجه جدا..ثم راق الجو شيئا بعد شىء ، وهدأت الآمرة ، وأجبرتنا على أن نتعانق ، وردت الينا بالاشكا السيفين ، فخرجنا من بيت الآمر متصالحين فى الظاهر . وصحبنا ايفان اجناتتش . فقلت له بصوت خشن : « الا تستحى ؟.. تشى بنا الى الآمر ، بعد أن قطعت على نفسك عهدا بأن تسكت ؟ » . فأجاب قائلا : « اقسم اننى لم اقل لايفان كوزمتش شيئا ، ولكن فاسيليسا ييجوروفنا أكرهتنى

اكراها على مكاشفتها بالأمر ، وهى التى اتخذت هذه الاجراءات دون أن ترجع الى الآمر . على أننى احمدالله أن الأمر انتهى على هذا النحو ! »

قال هذا ، ثم دخل الى بيته ، وتركنا وحدنا . فقلت لشفابرين : «لايمكن أن يقف الأمر عند هذا الحد !» . فأجاب : « طبعا .. ستدفع من دمك ثمن الاهانة التى وجهتها الى .. ولكن اغلب الظن أنهم سيراقبوننا ، فلا بد أن نخادعهم بضعة أيام . عم مساء ! »

وافترقنا كأن لم يحدث شىء . فلما عدت الى بيت الآمر ، جلست على عادتى الى جانب « ماريا ايفانوفنا » . ولم يكن ايفان كوزمتش فى البيت ، وكانت فاسيليسا يجوروفنا مشغولة باعمال المنزل ، فاخذنا نتحادث بصوت خافت ، فلامتنى «ماريا ايفانوفنا» — لوما رقيقا — على المخاوف التى سببتها للجميع بتشاجرى مع شفابرين . وقالت : « كاد يغمى على حين بلغنى أنكما تنويان المبارزة . ماأعجب الرجال، انهم مستعدون — بسبب كلمة قد ينسونها بعد اسبوع — لأن يقتل بعضهم بعضا ، فيضحوا بحياتهم ، وبسعادة أولئك الذين .. على اننى واثقة من انك لست الذى اثار المشاجرة .. أعتقد ان الكسى ايفانتش هو المذنب ! »

— لماذا تظنين هذا يا ماريا ايفانوفنا ؟

— لأنه .. لا يكف عن الهزء والسخرية .. اننى لا احب الكسى ايفانتش . . اننى أكرهه . والغريب اننى اخشى دائما ان لا اعجبه .. انه ليثيرنى أن لا أنال اعجابه !

— وهل تعتقدين يا ماريا ايفانوفنا ، انك تعجبينه ؟

قالت : « اعتقد اننى اعجبه » . فسألتها : «من اين جاءك هذا الاعتقاد ؟ »

ـ لأنه طلب يدى .

ـ طلب يدك ؟ متى ؟

ـ فى السنة الماضية ، قبل وصولك بشهرين ..

ـ ورفضت ؟

ـ كما ترى ! .. صحيح ان الكسى ايفانتش رجل ذكى ، وانه ينتمى الى اسرة محترمة ، ويملك ثروة طائلة ، ولكن يكفى ان اتصور اننى ساقبله امام الناس فى الكنيسة ، حتى اقول : لا ، لا .. مستحيل ، مستحيل !

هكذا فتحت كلمات ماريا ايفانوفنا عينى ، ووضحت الى كثيرا من الأمور . فهمت لماذا يصر شفابرين على الحط من شانها فى مثل هذا الخبث وهذه الوقاحة .. لعله ادرك ما بيننا من عاطفة متبادلة .. اكان يريد ان يفرق بيننا ؟ .. وبدت الى الكلمات ـ التى اثارت المشاجرة ـ اكثر دناءة ، لأننى اصبحت لا ارى فيها مجرد سخرية فظة غليظة ، بل تهمة باطلة عن سابق تصور وتصميم . وازدادت رغبتى فى معاقبة هذا الوقح ، فاخذت انتظر الفرصة المناسبة بصبر فارغ .

ولم يطل انتظارى . . ففى الغداة ، بينما كنت أؤلف قصيدة رثائية ، واقضم قلمى باحثا عن قافية ، قرع شفابرين نافذة غرفتى ، فوضعت القلم ، وحملت سيفى ، وادركته فى الشارع . قال : ((علام الانتظار ؟ ليس يراقبنا أحد .. لنهبط الى النهر ، فلن يزعجنا أحد هناك !)) . فسرت وراءه .. وبعد ان هبطنا منحدرا وعرا ، وقفنا على ضفة النهر ، واستللنا السلاح . وكان شفابرين احذق منى ، ولكننى كنت

اقوى منه واشجع ، واستفدت من دروس في المسايفة (١) اعطاني اياها مسيو « بوبريه » الذى كان في سابق أيامه جنديا . ولم يتوقع شفابرين أن أكون خصما خطرا الى الحد.

وظللنا نتبارز مدة طويلة ، دون ان يصب احد منا الآخر بأذى . فلما لاحظت أخيرا أنه بدأ يضعف ، أخذت أهاجمه بعنف ، حتى صار على شفا النهر ، فاذا أنا أسمع صوتا يناديني فجاة بصوت عال . فالتفت فرأيت سافيليتش يعدو هابطا المنحدر .. وفي هذه اللحظة ، احسست بالم قوى في الكتف الأيمن ، ثم سقطت مغشيا علي !

---

(١) يقصد المبارزة بالسيف .

(٥) واخيرا .. عرفت الحب !

« ايه ايتها الصبية الجميلة !
« لا تتزوجى قبل الاوان ..
« استنصحى اباك وامك .. والأسرة كلها !
« كونى عاقلة ، واجمعى مهرا ..
« قبل كل شىء ! » - اغنية شعبية

• **حين** أفقت من اغمائى ، ظللت مدة طويلة لا أستطيع ان أستجمع ذكرياتى ، ولا ان أفهم ما حدث لى .. رأيتنى مضطجعا فى غرفة لا أعرفها . وكنت أشعر بضعف شديد . ورأيت سافيليتش واقفا امامى وقد امسك بيده شمعة . ورأيت احد الناس يفك الاضمدة التى تشد كتفى وصدرى ، يفكها فى كثير من الحذر . واتضحت أفكارى شيئا بعد شىء ، فتذكرت المبارزة ، وادركت أننى جرحت . وفى هذه اللحظة سمعت الباب يفتح .. ودمدم صوت يقول : « كيف حاله الآن ؟ »

وارتجفت حين سمعت هذا الصوت..وأجاب سافيليتش وهو يطلق من صدره زفرة حارة : « مازال كما كان .. انه فاقد وعيه منذ خمسة أيام » .

وحاولت أن التفت ، ولكنى لم استطع . فقلت فى جهد ومشقة : «أين انا ؟..من هنا؟» . **فاقتربت ماريا ايفانوفنا من السرير ، وانحنت على تسألنى : « كيف ترى نفسك الآن »** . فأجبت بصوت ضعيف : «الحمدلله ! .. أهذه انت يا ماريا ايفانوفنا . قولى لى .. ! »

ولم استطع أن أتم كلامى ، فهتف سافيليتش ، وقد ظهرت فى وجهه آيات الفرح : « عاد اليه شعوره ، عاد اليه شعوره .. حمدا لك يارب ، آه ! .. يابترو اندريفتش ،

لشد ما اخفتني .. خمسة أيام متواصلة ! »

واعتقدت ماريا ايفانوفنا أن عليها أن تقطع حماسته ، فقالت متجهة الى سافيليتش : «لاتكلمه كثيرا ياسافيليتش. انه مازال ضعيفا جدا ! » . ثم خرجت وهى تغلق الباب بلطف .

وزحمت رأسي الأفكار .. لقد كنت اذن فى منزل الامر ، وجاءت ماريا ايفانوفنا تعودني ! .. وأردت أن أطرح على سافيليتش بعض الأسئلة ، الا ان العجوز أخذ يهز راسه ، وسد أذنيه ، فاغمضت عينى آسفا . وما لبثت أن نمت . فلما استيقظت ، ناديت سافيليتش ، ولكن ماريا ايفانوفنا هى التى جاءت تلبى ندائى . وحيانى صوتها الملائكى..ولا استطيع ان اعبر عن شعور الفرح الذى تملكنى فى هذه اللحظة. وتناولت يدها أبللها بدموع الحنان ، فلم تسحب ماريا يدها. وفجأة لامست شفتاها خدى ، فاحسست قبلتها غضة دافئة معا .. وسرت فى جسمى كله رعدة .. وقلت لها :

ـ عزيزتى ماريا ايفانوفنا ، ياذات القلب النبيل .. هلا وافقت على ان تكونى زوجتى ، فأكون اسعد انسان على وجه الارض !

وكأنما ثابت الى رشدها فقالت وهى تسحب يدها :«كن هادئا ، ارجوك !.. انك مازلت فى خطر ، وقد ينكأ جرحك ، فحافظ على نفسك ، ولو من اجلى ! » .. قالت ذلك ، ثم خرجت . وتركتنى فى نوع من النشوة أشبه بالوجد . احيتنى السعادة .. انها تحبنى ، ستكون زوجتى ! .. وملكت على هذه الفكرة نفسى كلها !

***

أخذت صحتى تتحسن منذ **تلك** اللحظة . وكان حلاق الفوج هو الذى يقوم على معالجتى ، فلم يكن فى الحصن طبيب آخر غيره . واحمدالله على انه لم يعقد الامور .. على ان شبابى قد عجل شفائى . وكانت اسرة الآمر كلها تعنى بى . واصبحت «ماريا ايفانوفنا» لاتتركنى ابدا . وكان طبيعيا ان أنتهز أول فرصة مناسبة ، فافاتحها فى الأمر مرة اخرى ، طالبا يدها .. **وهكذا فعلت ، فأصغت ماريا ايفانوفنا الى كلامى فى صبر اشد من صبرى ، ثم اعترفت لى بحبها دون مواربة ،** واضافت الى ذلك أن ابويها يسرهما ان يرياها سعيدة .. ثم أردفت تقول : « ولكن فكر فى الأمر .. الا تعتقد أن أبويك قد يعارضان ؟ »

واطرقت أفكر .. ما كنت اشك ابدا فى أن أمى توافق ، ولكننى تصورت — وانا اعرف طبع ابى وأعرف نظرته الى الأمور — أن حبى لن يؤثر فيه كثيرا ، وانه سيعده نزوة من نزوات الشباب . واعترفت لماريا ايفانوفنا بهذا فى صراحة تامة ، وقررت — مع ذلك — أن أكتب الى أبى طالبا أن يوافق على زواجى وان يباركه ، مستعينا فى ذلك بكل ما اوتيته من بلاغة وقوة حجة . واطلعت « ماريا ايفانوفنا » على هذه الرسالة ، فوجدتها مؤثرة مقنعة ، حتى انها لم تشك فى أن ابى سيوافق .. **لقد استسلمت للعاطفة الرقيقة التى يمليها عليها قلبها ، ولكل ما فى الشباب والحب من ثقة ورجاء !**

وتصالحت مع شفابرين منذ الأيام الأولى من شفائى . ووبخنى ايفان كوزمتش على اقترافى ذنب المبارزة قائلا : «كان ينبغى أن أسجنك يابترو اندريفتش ، لولا انك قد عوقبت العقاب الذى تستحقه . اما الكسى ايفانتش فهو الآن سجين فى مخزن المئونة ، وسيفه محجوز لدى فاسيليسا ييجوروفنا ، عسى أن يفكر ويندم على ما اقترفت يداه ! »

وكنت اسعد من ان احمل لخصمى حقدا او ضغينة ، فتشفعت له ، ووافق الآمر الطيب القلب ، بعد ان استشار زوجته ، على ان يطلق سراحه . وجاء شفابرين يعبر لى عن عميق أسفه على ما وقع بيننا ، واعترف بأنه هو المخطىء ، وسألنى ان انسى الماضى . وأنا أمرؤ غير حقود ابدا ، فغفرت له المشاجرة والجرح جميعا .. **غفرتهما صادقا كل الصدق ، لأننى عزوت الكلمات السيئة التى قالها فى حق « ماريا ايفانوفنا » ، الى ما يشعر به العاشق من حقد حين يصد ، وانتحلت له الأعذار فى كرم وسخاء !**

وما لبثت أن عوفيت حتى أصبحت قادرا على ان أعود الى بيتى . ورحت انتظر جواب الرسالة بصبر فارغ ، دون أن اجرؤ على كبير رجاء ، محاولا أن أخنق ما يقوم فى نفسى من نطير حزين . ولم اكن قد صارحت « فاسيليسا ييجوروفنا » وزوجها فى الأمر ، الا أن طلبى ماكان له أن يفاجئهما ، لأننا — اناوماريا — لم نكن نتخفى عنهما ، وكنا على يقين من موافقتهما قبل أن نطلبها .

وفى ذات صباح ، دخل على سافيليتش يحمل رسالة بيده ، فسارعت أتناولها بنوع من الرعب . ورأيت العنوان مكتوبا بخط ابى ، فتهيأت لأمر خطير .. ذلك أن امى هى التى تكتب الى عادة ، اما أبى فيكتفى باضافة بضعة أسطر فى آخر الصفحة .. وظللت — مدة طويلة — اقرأ العنوان الضخم ، دون أن اجرؤ على فض الرسالة :

« الى ابنى بترو اندريفتش جرينيف
فى حصن بيلوجورسكا — اقليم اورنبورج »

كنت احاول أن أرى — فى الخط — الحالة النفسية التى كان أبى فيها حين كتب هذا العنوان . وقررت أخيرا أن أفض

الرسالة . . ثم ايقنت منذ قراءة الأسطر الأولى أن الحال على أسوأ ما يكون . اليكم ما قرأته :

« ابنى بترو :

« وصلتنا رسالتك فى الخامس عشر من الشهر الحالى ، وفيها تطلب الينا الموافقة على زواجك بماريا بنت ايفان ميرونوف ، ومباركة هذا الزواج . **فاعلم اننى انوى أن أمنع عنك الموافقه والمباركة معا .** بل اضيف الى ذلك اننى افكرت فى أن أقبض عليك – برغم انك فى رتبة ضابط – وأن أعطيك الدرس الذى يعطى لصبية صغار . ذلك لأنك برهنت فعلا على أنك ما زلت غير اهل لحمل السيف الذى عهد به اليك لتدافع عن الوطن ، لا لتقتل فى مبارزة مع أناس تافهين مثلك . سأكتب بلا ابطاء الى آندريه كارلوفتش اطلب اليه أن ينقلك من الحصن الى أبعد مكان ممكن ، عسى أن تنسى هنالك حماقاتك وسخافاتك . **حين علمت امك بنبأ المبارزة والجرح ، سقطت مريضة من الحزن والكرب ولزمت فراشها .** كيف انت الآن؟ . . أسأل الله ان يردك الى الصراط المستقيم ، وان كنت لا أجرؤ على ان استغفره لك . **أبوك : آ . ج »**

***

ايقظت هذه الرسالة فى نفسى جميع انواع العواطف : آلمتنى هذه العبارات القاسية يرسلها ابى فى سخاء ، وبدا لى هذا الاحتقار الذى يشتمل عليه كلامه عن « ماريا ايفانوفنا » استهتارا بها لا تستحقه . . وصعقت حين تصورت اننى سأترك الحصن فى القريب ، واحزننى مرض امى أكثر من اى شىء آخر ، وحقدت على سافيليتش حقدا قاتلا ، لأنه هو الذى أبلغ ابوى نبأ المبارزة من غير شك . فمضيت أجتاز اليه

الغرفة الضيقــة ، حتى وقفت أمامه ، فألقيت عليــه نظرة مهــددة متوعــدة . وقلت : « لم يكفك أننى جرحت وظللت شهرا كاملا على شفا القبر بسببك ، فأردت أيضا ان تقتل امى ! »

وصعق ســافيليتش ذعرا ورعبا ، وأوشــك أن ينفجر منتحبا ، وقال : « ماذا تقول ياسيدى ؟ .. أبسببى اذن جرحت ؟ . . يعلم الله اننى كنت اركض لأحميك ، معرضا صدرى لسيف الكسى ايفانتش ، ولم يمنعنى عن ذلك الا الشيخوخة اللعينة . . ثم ماذا صنعت لأمك ؟ »

ـ ماذا صنعت لها ؟ .. من ذا الذى طلب اليك ان تكتب واشيا بى ؟ .. من الذى طلب اليك أن تتجسس على ؟

فقال سافيليتش وهويبكى بكاء سخيا : «أنا وشيت بك ؟ .. يا الهى ! . . ولكن اقرأ ماذا كتب الى سيدى والدك ! . . اقرأ فتعلم هل وشيت بك ! » . . قال هذا ، واستل من جيبة رسالة ، فقرأ لى ما يلى :

«الا تستحى أيها الكلب الهرم ؟ . . لماذا لم تكتب إلى شيئا عن بترو اندريفتش ، مع اننى أمرتك بأن تنقل الى انبــاءه ؟ . . ان الغرباء هم الذين يتولون ابلاغى حماقاته . أهكذا تقوم بواجباتك ، وتنفذ أوامر اسيادك ؟ . . عقابا لك على انك اخفيت الحقيقة ، وسهلت حماقة سيدك الشاب ، سأرسلك ترعى الخنازير ، أيها الكلب الخرف ! . . اننى آمرك بأن تكتب الى ، فور وصول هذه الرسالة اليك ـ دون ابطاء ـ بأنباء صحته . لقد قيل لى انه شفى . اذكر لى اين كانت الاصابة ، وهل عولج الجرح معالجة كافية ! »

كان واضحا اذن ان سافيليتش ليس ملوما ، وان ظنونى فى غير محلها . فسألته أن يغفر لى هذه الاهانة التى وجهتها

اليه دون ان يستحقها ، الا ان كلامى لم يستطع أن يعزيه . وقال : « اهكذا اذن ؟ .. اهكذا يكافئنى اسيادى ؟ .. كلب هرم ، راعى خنازير ! .. وانا السبب فى جرحك ؟ .. كلا ياعزيزى ، لست انا السبب .. السبب هو ذلك « المسيو » اللعين الذى علمك هز السيوف والركل بالأرجل ، كأن ذلك هو الوسيلة التى يحفظ بها الانسان نفسه من الاذى ! .. أكان ضروريا استئجار هذا « المسيو » وتبديد المال سدى ؟ ! »

ترى من ذا الذى كلف نفسه – اذن – عناء اطلاع أبى على سلوكى ؟ ..أهو القائد اللواء ؟ .. ولكن القائد لايبدو مهتما بشئونى ، ثم أن « ايفان كوزمتش » لم ير من الضرورى أن يقدم له تقريرا عن هذه المبارزة . ورحت اخمن وارجم .. وانصبت شبهاتى على شفابرين . انه الشخص الوحيد الذى قد يستفيد من الوشاية بى ، اذ يترتب عليها أن اترك الخدمن وانفصل عن اسرة الآمر .

ومضيت الى « ماريا ايفانوفنا » ، لأطلعها على كل شىء ، فلقيتها على درج الباب . وقالت حين رأتنى : « ماذا حدث لك ؟ انك ممتقع اللون جدا » . فقلت وانا أمد لها رسالة أبى : « لقد انتهى كل شىء » . فامتقع لونها هى الأخرى . حتى اذا فرغت من قراءة الرسالة مدتها الى بيد مرتجفة وهى تقول : « هذه ارادة القدر .. ان أبويك لايحبانى . لتكن مشيئة الله . **انه اعلم بما نحن فى حاجة اليه . وما دام الأمر كذلك ، فكن سعيدا انت على الأقل ! »**

فهتفت وانا أمسك يدها : « لن تكون هذا أبدا . انك تحبيننى ، وانا مستعد لكل شىء . لنذهب الى أبويك نرتمى على أقدامهما . انهما من الناس البسطاء ، لا من الناس المزهوين القاسية قلوبهم ، وسيوافقان على زواجنا ويباركانه ،

فنتزوج .. وأنا واثق من اننا نستطيع فى المستقبل أن نلين ارادة ابى ، وستكون أمى معنا تدافع عنا ، فيغفر لنا الخروج على ارادته ! »

فأجابت ماشا : « **كلا يابترو اندريفتش .. لن أتزوجك قبل أن نحصل على مباركة أبويك ، والا كان الشقاء حظنا من الحياة !** .. لنخضع لمشيئة الله . واذا وجدت خطيبة اخرى ، اذا أحببت فتاة أخرى ، سألت الله أن يمدك بعونه ، يابترو اندريفتش . أما أنا ، فأمضى .. فى سبيلكما ! » .. وتفجرت الدموع من عينيها . وتركتنى وحدى.. وأردت أن اتبعها الى داخل البيت ، ولكنى شعرت أننى فى حالة لا استطيع معها أن أملك زمام نفسى ، فرجعت الى بيتى .

وفيما أنا غارق فى أحلام بعيدة ، اذا بسافيليتش يقطع على تاملاتى وهو يمد الى ورقة مطرزة بخطه ، ويقول : « خذ ياسيدى وانظر بنفسك هل أنا واش ، وهل حاولت ان افسد الجو بين سيدى الشاب وابيه ! » . فتناولت الورقة التى مدها الى . واذا بها جواب على الرسالة التى تلقاها من أبى . وها أنا ذا انقلها هنا كلمة كلمة :

« **سيدى اندريه بتروفتش ، ابانا الرحيم :**

« تلقيت كتابكم اللطيف ، الذى حلا لكم فيه ان تبدو استياءكم من خادمكم ، والذى تلوموننى فيه على أننى لا أطيع اسيادى . لست بالكلب الهرم ، ياسيدى ، وانما انا خادمكم الأمين . اننى انفذ اوامر أسيادى . ولقد خدمتكم دائما فى حماسة الى اليوم الذى ابيض فيه شعرى تماما . ولئن لم أكتب اليكم شيئا بصدد جرح بترو اندريفتش ، فما ذلك الا لأننى لم أشأ ان أخيفكم فيما لا فائدة فيه . ولقد سمعت ان مولاتى ادوفيتيا فاسيليفنا قد بلغت من الجزع حدا ألزمها فراشها . اننى

ادعو الله ان يرد اليها عافيتها . لقد جرح بترو اندريفتش فى صدره ، تحت عظم الكتف الأيمن على وجه الدقة ، وكان عمق الجرح فركوكا ونصف فركوك (١) .. وقد نقلناه من ضفة النهر الى منزل الآمر ، حيث عالجه هنالك ستيفان باموورونوف ، حلاق المنطقة . وان بترو اندريفتش الآن ـ بحمدلله ـ فى تمام عافيته ، ولا انقل اليكم من اخباره الا الحسن المطمئن . يقال ان رؤساءه راضون عنه ، وان فاسيليسا ييجورفنا تعامله كانه ابنها . ولئن وقع له هذا الحادث ، فان لكل جواد كبوة ، والاخطاء الماضية لا تذهب شرف الشجاع . لقد حلا لكم ان تكتبوا انكم سترسلوننى ارعى الخنازير . انكم ياسيدى احرار فى عبيدكم تتصرفون فيهم كما تشاءون . ولا يسعنى فى الختام الا ان احييكم ذليلا .

خادمكم الأمين : اربيب فيليف »

لم استطع ان امنع نفسى عن الابتسام وانا اقرأ رسالة العجوز الطيب . وكنت لا اشعر ان بى من القوة مايمكننى من الاجابة بنفسى ، فبدت لى رسالة سافيليتش كافية لتطمين امى .

وتغير حالى منذ ذلك اليوم تغيرا كبيرا ، فان ماريا ايفانوفنا اصبحت لاتكلمنى تقريبا ، واصبحت تحاول جهدها ان تتحاشى لقائى . واصبح بيت الآمر ثقيلا على نفسى ، ثم تعودت ـ شيئا بعد شىء ـ ان ابقى وحيدا فى بيتى . ولامتنى فاسيليسا ايفانوفنا فى أول الأمر على ذلك ، الا انها ـ وقد رات اصرارى ـ تركتنى وشأنى . واصبحت لا ارى ايفان كوزمتش ، الا حين يقتضى عملى ذلك ، ولا ألقى شفابرين الا

(١) حوالى سبعة سنتيمترات تقريبا .

فى النادر القليل ، ودون ان اجد فى لقائه اية متعة ، لاسيما وانني لاحظت انه يحمل لى كرها خفيا . وهذا ما أيد ظنونى وشبهاتى . . صرت كمن اشمأز من الحياة كلها ، وهويت الى كآبة قاتمة تقويها الوحدة ، وتغذيها البطالة . **وكانت العزلة تزيد حرارة حبى ، فكنت ازداد الما وعذابا يوما بعد يوم .** وفقدت الميل الى القراءة والى كل شاغل ادبى ، واصبحت فى حالة من الانهيار المرضى خشيت معها احد شيئين : الجنون او المجون . الا ان حوادث لم تكن فى الحسبان ، بثت فى نفسى ـ على حين فجأة ـ اندفاعة قوية مفيدة ، كان لها فى حياتى كلها تأثير عظيم .

(٦) – الاستعداد لمواجهة المتمردين

« اسمعوا ايها الفتية البسطاء ..
« ما نقصه عليكم ، نحن الشيوخ » – اغنية

• **قبل** ان أشرع فى سرد الأحداث الغريبة التى شهدتها ، يجب على ان أقول بضع كلمات عن حالة اقليم (أورنبورج) فى أواخر عام ١٧٧٣ :

كان يقطن هذا الاقليم الغنى الواسع ، عدد من الأقوام هم الى التوحش أقرب منهم الى التمدن ، لم يعترفوا بالسيادة الروسية الا منذ عهد قريب . ولم تكن هذه الأقوام قد تعودت النظام وحياة الحضارة ، فكانت طباعها لا تخلو من طيش وقسوة ، وكانت تقوم بثورات كثيرة . فكان هذا كله يقتضي من جانب الحكومة رقابة متواصلة تلزمهم باحترام الدولة والخضوع للقانون ، فاقامت حصونا حيث بدا ذلك ضروريا ، وعينت للحصون فى الغالب جنودا من القوزاق ، يقطنون ضفاف (اليائيق) منذ مدة طويلة . **الا أن هؤلاء المحاربين الذين اعتمدت عليهم الدولة لاقامة دعائم الهدوء والأمن فى البلاد ، كانوا هم أنفسهم رعايا طائشين خطرين** . فأشعلوا الثورة فى عاصمتهم ، عام ١٧٧٢ . وكان الدافع الى هذه الثورة ما اتخذه اللواء « تراوينبيرج » من اجراءات قاسية لاخضاع فرقة (اليائيق) للنظام ، فقتلوا «تراوينبيرج» قتلا وحشيا ، واحدثوا فى القيادة ماشاء اهم هواهم من تبديلات . الا أن الفتنة أخمدت أخيرا وانزلت فى الثائرين عقوبات هائلة .

كل ذلك كان قد وقع قبل وصولى الى (بيلوجورسكايا) بقليل . وكان كل شىء قد عاد الى النظام ، فى الظاهر على اقل تقدير .. وقد اسرفت السلطات فى تصديق التوبة

الكاذبة التى يظهرها هؤلاء القوزاقيون ، على حين ظل الحقد يملأ نفوسهم ، فهم ينتظرون الفرصة المواتية لاستئناف أعمال العصيان والفوضى .

وبعد ، فلنعد الى قصتنا .. ففى ذات مساء ـ وكان ذلك فى أول تشرين الثانى من عام ١٧٧٣ ـ بينما كنت واقفا الى نافذتى وحيدا ، استمع الى صفير الريح وأتأمل السحب التى تغشى القمر ، جاءنى أحدهم يقول ان الآمر يستدعينى. فذهبت اليه على الفور ، فوجدته مؤتمرا (١) بشفابرين وايفان اجناتتش والوكيل القوزاقى . ولم تكن بينهم فاسيليسا بيجورفنا ولا ماريا ايفانوفنا . واستقبلنى الآمر وقد بدا عليه القلق والاضطراب ، ثم اغلق الباب وطلب الى الجميع أن يجلسوا ، الا الوكيل ظل واقفا الى جانب الباب . ثم أخرج الآمر من جيبه ورقة وهو يقول : «هناك خبر هام ، ياحضرات الضباط .. اسمعوا ماذا كتب الى القائد اللواء :

« الى الرئيس ميرونوف ، آمر حصن بيلوجورسكايا ـ مكتوم (٢)

«أرسل اليكم هذا الكتاب لأعلمكم ان قوزاقيا من الدون ، يدعى اميليان بوجاتشيف ، قد هرب من السجن ، واقترف وقاحة لاتغتفر اذ انتحل اسم المرحوم الامبراطور بطرس الثالث ، وجمع عصابة من المجرمين ، فدعا جنود (اليائيق) الى الثورة ، واستولى على عدة حصون حتى الآن وخربها ، واثار القتل والنهب والسلب فى كل مكان . لذلك يجب عليكم ، ياحضرة الرئيس ـ لدى وصول هذه الرسالة اليكم ـ أن تتخذوا الاجراءات اللازمة لرد هذا اللص المدعى ، ولافنائه

---

(١) اى : مجتما بهيئة المؤتمر

(٢) اى سرى ..

اذا أمكـن ، متى بدا له ان يهـاجم الحصن الذى عهـد به الى كفاءتكم الممتازة . »

ــ الاجراءات الازمة ؟ !

قال الآمر ذلك وهو يرفع نظارتيه ويطوى الورقة . ثم اردف يقول : « الكلام سـهل ! .. ان هذا الكلب قوى فيما يظهر ، ونحن لانملك الا ١٣٠ رجلا ، فيما عدا القوزاق الذين لايعتمد عليهم كثيرا .. لاتؤاخذنى يامكسيمتش ! (هنا ضحك الوكيل) على انه لابد من العمل ، ياحضرات الضباط ، فكونوا على اهبة من الامر ، ونظموا الرقابة ودوريات الليل .. وانت يامكسيمتش ، عليك بمراقبة أصحابك القوزاق مراقبة جيدة ، وليفحص المدفع ، ولينظف تنظيفا جيدا . ولكن قبل كل شيء، اياكم واذاعة النبا ! .. حافظوا على السر محافظة مطلقة ، حتى لايعرف الأمر احـد من الحصن قبل الأوان » .. قال الآمر هـذا الكلام ، ثم اذن لنـا بالانصراف ، فخرجت يصحبنى شفابرين ، وتحدثنا فيما سمعنا .

قلت : « ما رايك ؟ كيف ينتهى الأمر فيمـا تعتقـد ؟ » فأجاب شـفابرين قائلا : « الله أعلم ، على أن الأمر ــ حتى الآن ــ ليس بالخطير . أما اذا .. » . وأطرق فجأة يفكر ، ثم اخذ يصفر لحنا فرنسيا وهو ذاهل .

***

ذاع نبا ظهور بوجاتشيف فى الحصن ، رغم جميع ما اتخذنا من احتياطات لكتمانه . ماكان لايفان كوزمتش ، رغم الاحترام العظيم الذى يحمله لزوجتـه ، أن يفضى لها بسر من أسرار العمل على أى حال من الاحوال . لذلك ماكاد يتلقى رسالة القائد اللواء ، حتى تصرف بحكمه ولباقة ، ليدبر فاسيليسا ييجوروفنا من البيت . فزعم لها ان الأب جراسيم قد تلقى

من (اورنبورج) انباء خارقة لايريد أن يبوح بها ابدا . فما ان سمعت فاسيليسا ييجوروفنا ذلك ، حتى تملكتها رغبة قوية فى زيارة الأب جراسيم ، واقترح عليها ايفان كوزمتش أن تصحب ماشا دفعا للملل اثناء الطريق .. فلما أن ذهبت فاسيليسا ييجوروفنا ، وأصبح سيد الأمر وحده ، أرسل يستدعينا على الفور ، وسجن « بالاشكا » فى المستودع ، تحاشيا لكل ما قد يفشى السر .

وعادت فاسيليسا ييجوروفنا الى البيت دون ان تستطيع استدراج الأب جراسيم الى الافضاء بأى شىء ، ثم ما لبثت ان علمت أن اجتماعا قدعقد اثناء غيابها فى البيت وأن بالاشكا سجنت فى المستودع . فادركت أن زوجها قد خدعها ، واخذت تستدرجه . الا أن ايفان كوزمتش كان قد تهيأ لهجومها ، فلم يضطرب ابدا ، واجاب بصوت هادىء على استجواب زوجته الطلعة (١) قال : « اسمعى يا عزيزتى ، ان السكان لم يجدوا خيرا من القش يحرقونه فى مدافئهم . ولما كان هذا خطرا جدا ، فقد أصدرت امرا صارما بأن لا يسمح لهم بذلك بعد الآن ، وأن يستغنوا عن القش بالحطب » . فسألته : « ولماذا سجنت بالاشكا؟.. لماذا اضطررت البنت المسكينة ان تبقى فى المستودع الى ان عدنا ؟ »

ولم يكن ايفان كوزمتش قد تهيأ لهذا السؤال ، فارتبك وتلجلج ، وقال كلاما لا ترابط فيه ولا منطق ، ففهمت فاسيليسا ييجوروفنا انه كان يضللها . ولما كانت تعرف انها لن تستطيع ابدا أن تستدرجه الى البوح بشىء ، فقد غيرت الحديث ، وتكلمت عن الخيار المخلل ، ذاكرة أن امرأة القس

---

(١) اى : الفضولية .

تحضره بطريقة خاصة .. وقضت الليل كله لا يعرف النوم الى جفنيها سبيلا ، الا انها لم تستطع أن تحرز ما كان يضمر زوجها من أشياء ينبغى ان لا يطلعها عليها ..

وفيما هى عائدة من الصلاة فى اليوم التالى ، رات ايفان اجناتتش يخرج من المدفع خرقا ، وحصى، ونشارة ، وعظاما، وانواعا من الصواة، مما حشاه به الأطفال. فتساءلت الآمرة: «مامعنى هذه الاستعدادات؟.. أيتوقعون هجوم الكرخيز؟.. ولكن أكان يمكن أن يكتم عنى ايفان كوزمتش هذا ؟ »

ثم استدعت ايفان اجناتتش ، وهى تنوى أن تستدرجه قطعا ، وأن تعلم هذا السر الذى يثير فضولها النسوى .. وبدأت فى أول الأمر تبدى له بعض الملاحظات المتعلقة بشئون البيت ، كما يفعل القاضى حين يبدأ بأن يطرح على المتهم اسئلة من شأنها أن تخدر يقظته . ثم بعد أن صمتت لحظة من الوقت ، اطلقت من صدرها زفرة عميقة ، وهزت رأسها ، وقالت متنهدة : « يا الهى !.. ان الاخبار سيئة جدا ، ترى ما الذى سيحل بنا ؟ » . فأجاب ايفان اجناتتش قائلا : « ان الله رحيم يا عزيزتى ، ولدينا عدد كاف من الجنود وذخيرتنا من البارود وفيرة ، وقد نظفت المدفع .. ولعلنا نستطيع أن نقاوم بوجاتشيف. من أعانه الله فلا ضار له !» . فسألت الآمرة : « ولكن من هو بوجاتشيف هذا ؟ »

هنا أدرك ايفان اجناتتش أنه قال أكثر مما كان ينبغى أن يقول ، فعض على شفته ، ولكن سبق السيف العزل.. فأجبرته فاسيليسا ييجورفنا على أن يعترف لها بكل شىء ، بعد أن قطعت على نفسها عهدا بأن لا تنقل هذه الاخبار الى أحد ..

ولقد برت بوعدها ، فلم تتحدث بالأمر الى أحد ، اللهم الا زوجة القس ، وذلك لأن بقرة زوجة القس تهرب دائما الى المراعى ، ومن الممكن والحالة هذه ان يقبض عليهـــا هؤلاء

وجلست ماريا ايفانوفنا فى ركن من الغرفة ،
وأخذت تخيط ..
(ص ٣٧)

اللصوص !.. وما هو الا وقت قصير ، حتى أصبح الناس لا يتحدثون عن شيء غير «بوجاتشيف» . وانقسمت الآراء ، وأصدر الآمر أمره الى الوكيل بان يمضى يتسقط الأخبار فى الحصون والقرى المجاورة . وعاد هذا بعد يومين يقول انه راى فى السهوب على بعد ستين فرسخا من الحصن نيرانا كثيرة ، وان الباشكير قد رووا له أن فرقا مجهولة تتقدم بقوى عظيمة . واضاف الى ذلك أنه لا يستطيع ان يؤكد شيئا على كل حال ، لانه لم يجرؤ ان يبعد فى توغله .

***

ولوحظت حركة قوية بين قوزاق الحصن : فكانوا يتجمعون فى جميع الشوارع ، ويتسارون ، ثم يتفرقون متى اقترب منهم خفير او جندى . وبث الآمر فيهم عيونا تترصدهم ، فجاءه « يولائى » ــ وهو كلموكى متنصر ــ بنبأ خطير ، وهو ان اقوال الوكيل كاذبة ، وان هذا القوزاقى المخادع قد ذكر لرفاقه انه ذهب الى الثوار وقابل رئيسهم ، وأن رئيسهم هذا قد سمح له بأن يقبل يده ، وانه تحدث اليه مدة طويلة . فما لبث الآمر أن اوقف الوكيل ، وعين « يولائى » فى محله . فاستقبل القوزاق هذا النبأ باستياء واضح ، وتذمروا منه جهارا ، حتى أن ايفان اجناتتش ــ الذى عهد اليه الآمر بتنفيذ امره ــ قد سمع بأذنيه تهديدات من هذا القبيل : «انتظر قليلا ، ايها الجرذ ، فسيأتى دورك وتحين ساعتك ! »

وكان الآمر يريد أن يستجوب سجينه فى اليوم نفسه ، الا ان السجين فر ، بمعونة انصاره .. فى اغلب الظن . ووقع حادث جديد فاقم مخاوف الآمر وقلقه . فقد اعتقل أحد الباشكير ، وهو يحمل منشورات تحض على الثورة . فأراد الآمر فى هذه المناسبة أن يجمع ضباطه مرة أخرى ، وأن

بعد - من اجل ذلك - فاسيليسا ييجوروفنا عن البيت ، بانتحال حجة مناسبة . ولما كان ايفان كوزمتش من أصرح الناس وأكثرهم استقامة ، فانه لم يجد وسيلة أخرى ، غير التى عمد اليها فى المرة الأولى ، والتى كانت ناجحة موفقة ، فقال لامرأته وهو يتنحنح : «اسمعى يافاسيليسا ييجوروفنا .. يقال ان الأب جراسيم قد تلقى من المدينة .. » . فقاطعته الآمرة : «**كفى كذبا !.. انك تريد أن تجمع ضباطك لتكلمهم أثناء غيابى فى أمر امليان بوجاتشيف . ولن تخدعنى هذه المرة !** »

فرفت عينا ايفان كوزمتش ، وقال : «اسمعى اذن ياعزيزتى .. مادمت على علم بالامر ، ففى وسعك أن تبقى ، وسنتداول فى الموضوع بحضورك » .. فقالت : « هكذا يجب أن تتصرف .. لست أنت من يستطيع المكر !.. هيا استدع الضباط ! »

واجتمعنا مرة اخرى ، فقرأ علينا ايفان كوزمتش - بحضور زوجته - مطالب بوجاتشيف ، وقد دبجها قوزاقى كاد أن يكون اميا .. **ان هذا اللص يعلن عن نيته فى زيارة حصننا ، ويدعو القوزاق والجنود الى الالتحاق به ، ويحاول اقناع الرؤساء بأن لايبدأوا اية مقاومة ، ويهددهم بالتعذيب ان هم قاوموا .**

وقد كتبت هذه المطاليب باسلوب فظ ، ولكنه جذاب لابد ان يحدث تأثيرا خطرا فى أناس بسطاء .. فهتفت الآمرة : « ياله من كلب حقير ! اهذا ما يدعونا اذن اليه : ان نهب الى استقباله ، ونلقى بأعلامنا بين قدميه ؟.. خاب فأل ابن الكلب! الا يعلم اننا نخدم البلاد منذ اربعين عاما ، واننا قد رأينا كثيرا من امثاله ؟.. هل هناك حقا من آمرى المواقع من استجاب لدعوة هذا اللص ، وخضع لأمره ؟ »

فأجاب ايفان كوزمتش : « **لا اعتقد أن شيئا من هذا قد**

حصل ، ولكن يقال ان المدعى قد استولى حتى الآن على عدة حصون » . فقال شفابرين : « ذلك لانه قوى حقا » . واذ ذاك قال الآمر : « هذا ما سنراه بعد لحظة .. فاسيليسا ييجوروفنا ، اعطينى مفتاح الشونة !.. ايفان اجناتتش ، على بالباشكيرى ، وقل ليولائى ان يأتينى بالأسواط ! » . فقالت الآمرة وهى تنهض : « **انتظر ياايفان اجناتتش .. دعنى أخرج بماشا قبل كل شىء !.. ستموت خوفا ، ان هى سمعت الصراخ .** وانا نفسى لا احب هذا « التعذيب » والحق يقال .. أرجو لكم التوفيق ! »

وكان التعذيب فى ذلك الوقت من الرسوخ فى تقاليدنا القضائية بحيث أن القرار الموفق الذى اتخذ لالغائها ظل مدة طويلة دون تطبيق .. كانوا يعتقدون أن اعتراف المجرم بجرمه شىء لابد منه . والواقع أن هذا الاعتقاد لا يستند الى أساس ، بل انه ينافى المنطق القضائى ، لانه اذا لم يكن الانكار دليلا على البراءة ، فالاعتراف ليس دليلا على الجرم . ما زال يتفق لى حتى يومنا هذا أن سمع بعض الشيوخ من القضاة يأسفون لزوال هذه العادة الوحشية . أما فى ذلك الوقت ، فما من احد كان يشك فى فائدة التعذيب ، لا من القضاة ولا من المتهمين . لذلك فان الأمر الذى أصدره الآمر لم يدهش احدا ، ولا أقلق احدا . ومضى ايفان اجناتتش يحضر الباشكيرى الذى كان فى أحد العنابر وبعد لحظات جىء بالسجين الى الدهليز .

اجتاز الباشكيرى العتبة فى مشقة وعناء ـ اذ كانت قدماه مقيدتين ـ ثم رفع قبعته المخروطية ، ووقف قريبا من الباب . **فلما نظرت اليه ، سرت فى جسمى رعدة قوية . لن أنسى هذا الرجل ماحييت ..** كان يبدو انه تجاوز السبعين ، وكان مقطوع الأنف ، مصلوم الأذنين ، محلوقا شعر الراس ،

فى ذقنه بضع شعرات بيض .. وكان قصيرا، نحيلا، محدودب الظهر ، الا أن عينيه الصفيرتين كانتا تقدحان شررا .

قال الآمر وقد عرف فيه ــ من هذه العلامات ــ ثائرا قديما عوقب عام ١٧٤١ : « أهذا انت أيها الذئب القديم الذى سبق ان وقع فى الفخ !.. اذن ليست هى المرة الأولى التى تثور فيها . ارنى هذا الراس الحليق !.. اقترب ! قل ، من ارسلك ؟ » . ولم يجب الباشكيرى العجوز بشىء ، بل راح يرمى الآمر بنظرة خالية من اى تعبير . فاستانف الآمر قائلا: « لماذا لا تجيب ! ام انك لا تفهم الروسية ؟ .. يولائى، اساله بلغتكم عمن ارسله الى حصننا ؟ »

فردد يولائى السؤال باللغة التترية ، الا ان نظرة الباشكيرى ظلت جامدة لا تعبر عن شىء ، ولم يجب بكلمة واحدة . فقال الآمر : « حسنا. ستجيب بعد قليل. هيا أيها الشباب ، اخلعوا عنه هذا البرد الحقير ، ومزقوا ظهره جلدا !.. يولائى ، انى اعتمد عليك ، وأوصيك به خيرا ! » ..

فاخذ جنديان من المشوهين ينضوان عن الباشكيرى ثيابه . فاذا بوجه الشقى يكتسى تعبيرا قلقا .. فكان يرمى على من حوله نظرات مذعورة ، كحيوان أسره أطفال . حتى اذا أمسك احد الجنديين يديه ووضعهما على كتفيه فى مستوى عنقه ، وقلبه على ظهره ، وهز يولائى سوطه ، فاطلق العجوز صرخة متوسلة ليست بذات أحرف ، ثم رنح راسه وفغر فاه فاذا نحن نرى فى مكان اللسان قطعة من اللحم مقطوعة ترتلص .

حين أتذكر ان هذا كله قدحدث اثناء حياتى ، واننا وصلنا اليوم الى هذا العهد السعيد ، عهد الامبراطور الكسندر ، لا يسعنى الا ان ادهش لهذا التقدم الذى احرزناه ، ولهذه السرعة فى انتشار المبادىء الانسانية. . واذا وقعت مذكراتى

هذه بين يدى شاب ، فليذكر أن أحسن التغييرات وأبقاها هى التى ترجع الى تحسن الاخلاق والعادات ، لا الى هزة عنيفة أو ثورة جامحة .

وقال الآمر : « ارى اننا لا نستطيع ان نفهم من هذا الرجل شيئا يذكر . يولائى ، أعد الباشكيرى الى المنبر !.. اما نحن ايها السادة ، فقد بقيت هنالك أشياء كثيرة يجب أن ننظر فيها ! »

***

وفيما نحن نعالج الموقف ، اذا بفاسيليسا ييجوروفنا تدخل الغرفة فجاة وهى تلهث ، وقد لاح فى وجهها ذعر عميق . فسألها زوجها دهشا : « ماذا حدث لك ؟ »

– شر مستطير !.. احتلوا اليوم (نيين – اوزرنايا) .. لقد وصل الآن منها احد عمال الأب جراسيم ، وقال انه شهد المعركة ، وأن الآمر وجميع الضباط قد شنقوا .. فمن المتوقع اذن أن تصل العصابة بين لحظة واخرى .

صعقت لهذا النبأ ، فانني أعرف آمر الموقع فى (نيين – أوزرنايا) .. وهو رجل فى ريعان الشباب ، رقيق الحاشية ، نزل – منذ شهرين – ضيفا على ايفان كوزمتش فى طريق عودته من أورنبورج مع عروسه الشابة . وكانت (نيين – أوزرنايا) تقع على بعد ٢٥ فرسخا من بيلوجورسكايا .. فكان من المتوقع اذن أن تهاجمنا عصابات بوجاتشيف فى كل لحظة . وتصورت المصير الذى قد تؤول اليه ماريا ايفانوفنا ، فاختنق صدرى غما وقلقا . وقلت متجها الى الآمر : « اسمع يا ايفان كوزمتش !.. ان واجبنا هو أن ندافع عن الحصن حتى النفس الأخير ، هذا أمر لا يخامرنا فيه ظل من شك . ولكن يجب أن نوقى السيدات اى أذى يمكن أن يقع عليهن

.. فارسلهن الى (اورنبورج) ، اذا كان الطريق حرا ، أو ارسلهن الى أى حصن بعيد لا يتسع وقت اللصوص للوصول اليه ! »

فالتفت ايفان كوزمتش الى زوجته يسألها : « هل تسمعين ؟.. ما رأيك فى أن ارسلكما الى مكان بعيد ، الى أن نتغلب على هؤلاء العصاة ؟ » . فاجابت الآمرة : « هذا جنون !.. أين الحصن الذى لا ينال منه الرصاص ؟.. ولماذا تظن ان حصن بيلوجورسكايا اقل مناعة من غيره ؟.. نحن فيه ، بحمد الله ، منذ اثنين وعشرين عاما ، وقد رأينا كثيرا من رجال الباشكير والكرخيز ، وسيعصمنا باذن الله من بوجانشيف ! » . فاجاب ايفان كوزمتش يقول : « حسنا ، ابقى هنا ما دمت تولين حصننا كل هذه الثقة . ولكن ، ما نصنع بماشا ؟.. **ان الامر ليهون اذا استطعنا ان نظفر — فى الدفاع عن أنفسنا — أو اذا وصلتنا نجدة ، ولكن .. اذا استطاع الثوار ان يستولوا على الحصن .. »**

— عندئذ ..؟!

قالت فاسيليسا بيجورفنا ذلك ، ثم صمتت ، وقد لاح فى وجهها تأثر عميق . فاستأنف الآمر يقول ، وقد لاحظ ان كلامه أحدث تأثيرا فى زوجته .. ربما لأول مرة فى حياته : « كلا يافاسيليسا بيجوروفنا .. يجب أن لاتبقى ماشا هنا . فلنرسلها الى (اورنبورج) تقيم عند اشبينتها ، فانهم يملكون هناك عددا كافيا من فرق القتال ومن المدافع ، والأسوار هناك من حجر . وانى لأنصحك انت أيضا بالمضى الى اورنبورج .. سترين ماذا يصنع بك هؤلاء اللصوص ، ان قدر لهم أن استولوا على الحصن ، فلن يصدهم انك عجوز ! »

فأجابت الآمرة : « **اوافق على ارسال ماشا . أما أنا فلا تطلب الى ذلك أبدا ، ولا فى الحلم .. لن أذهب !** . لن انفصل

منك فى هذه السن ، لأمضى باحثة عن قبر وحيد فى بلد مجهول . لقد عشنا معا ، ومعا سنموت ! » .. فأجاب الآمر : « هذا كلام معقول ، وينبغى اذن أن لانضيع الوقت .. هيا حضرى ماشا للسفر ، فسنرسلها غدا فى الفجر ، وسيصحبها خفير ، برغم أننا لانملك من الرجال مايفيض عن حاجتنا . ولكن أين ماشا الآن ؟ »

— انها فى بيت آكولينا يامفولوفنا . لقد أغمى عليها حين بلغها نبأ الاستيلاء على (نين — أوزرنايا) ، وانى لأخشى أن تسقط مريضة . رباه ! الى أين وصلنا !

ومضت فاسيليسا ييجوروفنا تهيىء سفر ابنتها . واستمر الحديث ، الا أننى أصبحت لا أشارك فيه ، ولا أسمع شيئا .

ورأيت ماريا ايفانوفنا على العشاء شاحبة الوجه ، مورمة الجفن من البكاء . وتناولنا طعامنا صامتين ، ونهضنا عن المائدة قبل الأوان المألوف ، ثم استأذنا الأسرة بالانصراف .. واتجه كل منا الى بيته ، الا أننى تعمدت أن أنسى سيفى فى منزل الآمر ، ثم عدت لأخذه .. وكنت أشعر أنى سأقابل ماريا ايفانوفنا على انفراد ، فتحقق ظنى .. ولقيتنى ماريا ايفانوفنا عند الباب تمد الى السيف . وقالت والدموع فى عينيها : « بترو أندريفتش ، انهم يرسلوننى الى اورنبورج .. أرجو لك عمرا مديدا وحياة سعيدة .. وقد يشاء الله ان نلتقى مرة أخرى ، والا .. » . ثم انفجرت تنتحب ، فأخذتها بين ذراعى . وقلت أجيب :

— الى اللقاء ياملاكى ، الى اللقاء ياعزيزتى ، ياحبيبتى ! .. وثقى أنك ستكونين فى خيالى الى آخر لحظة ، مهما يقع من أحداث .. وأن آخر صلاة تتمم بها شفتاى ستكون لك !

وكانت ماتزال تنتحب .. وارتمت على صدرى ، فقبلتها فى حرارة ، وسارعت فتركت الغرفة .

(٧) العدو يستولى على حصننا .

« لك الله يا راسي المسكين ،
« قضيت بالخدمة ثلاثة وثلاثين عاما ؛
« لم تفز بمغنم ، لم تفز بفرحة ،
« لا ولا قول جميل ..
« ما فزت الا بركيزتين طويلتين ،
« وعارضة من خشب الدلب ،
« وعقدة من حرير ! » ـ اغنية شعبية

. قضيت تلك الليلة كلها دون أن أنام ، ودون أن أخلع ملابسى .. كنت أنوى أن أذهب عند الفجر الى باب الحصن الذى ستخرج منه ماريا ايفانوفنا راحلة ، فأودعها الوداع الأخير .. كنت أشعر بتغير فى نفسى. ان الانفعال الذى أعانيه فى هذه اللحظة أخف وطأة ـ على نفسى ـ من تلك الكآبة التى عشتها فى الأوقات الأخيرة . لقد أضيفت الى آلام الفراق ، آمال عذبة ـ على أنها غير واضحة ـ وشوق الى الأخطار ، وشعور بالطموح نبيل !

وانقضى الليل دون أن أحس انقضاءه. وكنت على وشك أن أخرج الى الشارع ، حين فتح الباب ، ودخل على احد الرقباء ، يبلغنى أن القوزاق قد تركوا الحصن أثناء الليل ، وجروا معهم « يولائى » عنوة .. وان أناسا مجهولين يحومون بخيولهم حول بيلوجورسكايا . فأعطيت الرقيب بعض التعليمات بسرعة ، وهرعت الى بيت الآمر .. وكان الصباح قد طلع . وكنت أطير فى الشوارع ، حين سمعت صوتا ينادينى ، فتوقفت .. فاذا هو ايفان اجناتتش . وقال وهو يلحق بى : « الى أين تركض ؟ .. ان ايفان كوزمتش على الأسوار ، وقد أوفدنى لاستدعائك . لقد وصل بوجاتشيف ! » .. فقلت وأنا أشعر بقلبى يرتعد : « وماريا ايفانوفنا ؟ .. هل سافرت ؟ » فأجاب :

« كلا .. لم يتسع الوقت . ان طريق اورنبورج مقطوع ، والحصن محاصر .. الحالة سيئة يابترو اندريفتش ! »

وذهبنا الى الأسوار .. انها مرتفع من الأرض طبيعى ، أضيفت اليه بعض التعزيزات . وكان جميع سكان الحصن يسارعون الى الأسوار . ورأيت الجنود على أهبة القتال ، والمدافع قد لدسب منذ الأمس .. ورأيت الآمر يتجول أمام صفوف جنوده الموزعة هنا وهناك .. كان اقتراب الخطر قد بث فى هذا المحارب العجوز شجاعة خارقة . ورأيت عشرين فارسا يخبون غير بعيد من الحصن .. كان معظمهم من القوزاق ، وان رؤى بينهم عدد من الباشكير الذين يعرفون بسهولة من قبعاتهم المصنوعة من جلد الفهد ، ومن كنائناتهم .

وكان الآمر يطوف بين جنوده قائلا : « فلنقاتل اليوم يا اولادى فى سبيل أمنا القيصرة (كاترين الثانية) ، ولنبرهن للعالم بأسره على أننا أناس شجعان أمناء على العهد ! » . فكان الجنود يجيبونه بهتافات عالية ، مؤكدين حماستهم وقوة باسهم . ووقف شفابرين الى جانبى يحدق فى العدو بانتباه شديد . فلما لاحظ فرسان العدو هذه الحركة فى الحصن ، اقترب بعضهم من بعض ، وكأنما اخذوا يتشاورون فيما بينهم ليحكموا تنظيم صفوفهم . فما كان من الآمر الا أن اصدر أمره الى ايفان اجناتتش أن يسدد نيران مدفعه على هذه الطائفة . واقترب هو نفسه يشعل الفتيل . ودوت القذيفة ، الا انها مرت فوق رؤوسهم دون أن تصيبهم بأى اذى . وتفرق الفرسان على الفور ، ومضوا على صهوات جيادهم خببا . ولم تلبث المراعى ان اقفرت .

وفى هذه اللحظة ظهرت فاسيليسا ييجورفنا على السور ، تتبعها « ماريا » ، التى لم تشأ أن تبقى فى الوراء . وتساءلت الآمرة : « وبعد ؟ أين المعركة ؟ .. لست أرى عدوا ! » .

فأجاب ايفان كوزمتش قائلا : «ليس العدو ببعيد . وستسير الامور على أحسن حال ان شاء الله .. وأنت يا ماشا ، هل أنت خائفة ؟ » . فأجابت ماريا ايفانوفنا : «كلا يا أبت . أن بقائى وحيدة فى البيت يخيفنى أكثر ! »

ثم ألقت على نظرة رقيقة ، وحاولت ان تبتسم ، فرأيتنى أشد على قبضة سيفى على غير ارادة منى .. هذا السيف التى ناولتنيه أمس بيدها ، كأنما لأدافع به عنها .. كان الدم يغلى فى عروقى ، وتخيلتنى فارس «ماشا» . وتحرقت شوقا الى ان أبرهن لها على اننى جدير بثقتها ، فأخذت انتظر اللحظة الحاسمة بصبر فارغ .

فى هذه اللحظة ، رأينا افواجا جديدة من الفرسان تظهر من وراء رابية على بعد نصف فرسخ من المكان . وسرعان ما امتلأت المراعى كلها برجال مسلحين يحملون رماحا واقواسا ، فى وسطهم رجل يرتدى قفطانا أحمر ويمتطى صهوة جواد اصهب ، ويهز بيده سيفا مسلولا .. وكان هذا الرجل هو بوجاتشيف !

وقف بوجاتشيف ، وتحلق حوله رجاله . ثم انفصل عن الجمع اربعة رجال اتجهوا نحو الحصن ، بعد أن تلقوا أمرا بذلك من غير ريب . فلما اقتربوا من الحصن ، عرفنا فيهم خونتنا . كان أحدهم يحرك فوق قبعته صحيفة من الورق . وكان آخر يحمل على طرف رمحه رأس يولائى ، قذفه الينا من فوق السور ، فتدحرج راس المسكين بين قدمى الآمر . واخذ الخونة يصيحون : «لاتطلقوا النار . تعالوا قابلوا القيصر .. ان جلالته هنا ! » . فأجاب ايفان كوزمتش قائلا : «انتظروا قليلا أيها الخونة . أطلقوا النار ، أولادى ! »

فأطلق جنودنا نيران اسلحتهم ، فرأيت القوزاقى الذى يحمل الرسالة يترنح فوق حصانه ، ثم يتدحرج على الأرض ،

وولى رفاقه الادبار . **نظرت الى «ماريا ايفانوفنا» ، فاذا هى – وقد صعقها منظر الراس الدامى ، راس يولاني ، وأصمها أطلاق النار – تبدو كانما هى فقدت وعيها** . ونادى الآمر أحد الرقباء ، وأمره أن يأتيه بصحيفة الورق التى سقطت من بين يدى القوزاقى القتيل ، فخرج القوزاقى الى السهل ، وعاد يجر حصان القتيل . ومد الرسالة الى الآمر . فلما فرغ ايفان كوزمتش من قراءتها ، مزقها شر ممزق . وكان المجرمون المكرة يتهيأون – أثناء ذلك – لمباشرة العمل ، فما لبث رصاصهم أن أخذ يصفر فى آذاننا . وجاءت بعض النبال تخترق الأرض والسور بالقرب منا .

قال الآمر يخاطب زوجته : « فاسيليسا ييجورفنا ! .. ليس الأمر الآن أمر نساء ، فاذهبى بماشا ! .. الا ترين أنها أقرب الى الموت منها الى الحياة ؟ » . وتأثرت فاسيليسا ييجورفنا من الرصاص ، فألقت نظرة على المراعى التى تضطرب بحركة كبيرة ، ثم قالت وهى تلتفت نحو زوجها : « **ايفان كوزمتش ، لايعرف أحد من يموت ومن يحيا .. بارك ماشا ! .. ماشا ، اقتربى من أبيك ! »**

فاقتربت ماشا من ايفان كوزمتش ، ممتقعة اللون مرتجفة ، ثم جثت على ركبتيها وانحنت حتى لامست الأرض . فرسم الآمر عليها اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم انهضها فقبلها ، وقال لها بصوت متهدج : « ماشا ، اتمنى لك السعادة .. لن يتخلى الله عنك ، فصلى له ! .. واذا قيض الله لك رجلا شريفا يتزوجك ، فانى اسأله تعالى ان يهب لكما السعادة .. اسعدى كما سعدنا مع فاسيليسا ييجورفنا . وداعا يا ماشا ! .. فاسيليسا ييجورفنا ، **اذهبى بها حالا !** »

فارتمت ماشا على عنقه ، وأخذت تشهق . وقالت الآمرة وهى تبكى : « **لنتعانق نحن أيضا ! .. وداعا يا عزيزى ايفان**

كوزمتش . سامحنى اذا كنت قد اسأت اليك فى شىء !)) ..
فقال وهو يقبل دمعه العجوز : « وداعا ، وداعا ياعزيزتى ! .. والآن ، يكفى هذا . ارجعا الى البيت ، والبسى «ماشا» ثوب « السارافان » اذا اتسع الوقت لذلك ! »

***

وانسحبت الأم معابنتها ، ونظرت اليهما تمضيان ، فرأيت ماشا تلتفت الى وتحنى رأسها فى تحية . وفى هذه اللحظة لفت ايفان كوزمتش نظرنا الى حركات يقوم بها العدو . كان العصاة يتجمعون حول زعيمهم ، ثم ينزلون فجأة عن جيادهم .. فقال الآمر : « الآن سيهجمون .. استعدوا ! »

فى هذه اللحظة ، سمعنا صرخات وزئيرا مدويا . وهجم الثوار يتقدمون نحو الحصن راكضين .. وكان مدفعنا مشحونا ، فتركهم الآمر يقتربون ، حتى اذا صاروا على مسافة قصيرة منا ، اطلق نار المدفع على حين غرة ، فسقطت القذيفة فى وسطهم ، فتفرق العصاة يتراجعون .. ووقف زعيمهم وحده فى الأمام .. كان يهز سيفه ، ويطمئن رجاله ويبث فيهم الحماسة.. فاذا الصراخ والزئير — اللذان انقطعا لحظة من الوقت — يدويان مرة أخرى فى قوة أكبر . فقال الآمر : « والآن ياأولادى ، افتحوا الباب ، ودقوا الطبل . اتبعونى أيها الشجعان ، سنخرج اليهم ! » .. وما هى الا طرفة عين ، حتى كنا — انا والآمر وايفان اجناتتش — فى الجهة الثانية من السور . الا ان الجنود الخائفين لم يتحركوا . فصرخ الآمر يقول : « ماذا تنتظرون ياأبنائى ؟.. ان الانسان لايموت الا مرة واحدة ، هذا واجبنا ! »

وفى هذه اللحظة ، وصل الينا العصاة ، واقتحموا باب الحصن . وسكت الطبل ، وألقى رجالنا سلاحهم . وكان

العصاة قد قلبونى على الأرض ، فلما نهضت ، دخلت الحصن وراء المهاجمين ، فرأيت الآمر – وقد جرح رأسه – يقف فى وسط جمع من اللصوص يطلبون اليه مفاتيحه . واردت أن اهب الى نجدته ، الا أن عددا من القوزاق الأقوياء قبضوا على وقيدونى بأحزمتهم ، وهم يقولون : « انتظروا قليلا ، ياخونة قيدركم ! » . وطافوا بنا الشوارع ، فكان السكان يخرجون من بيوتهم يحملون خبزا وملحا (علامة الترحيب) . واخذت الأجراس تدق ، ونودى فى الحشد فجاة ان القيصر فى الساحة الكبرى ينتظر السجناء ، وأن الناس سيحلفون له يمين الطاعة والولاء .. فهرع الجمهور نحو الساحة الكبرى ، والى هذه الساحة قادونا نحن أيضا .

وكان « بوجاتشيف » جالسا على مقعد ، فوق الدرج من باب بيت الآمر ، وقد ارتدى قفطانا قوزاقيا احمر ، تزينه اشرطة موشاة بالذهب . وكانت قبعته عالية ، ذات شرابات ذهبية ، تغطى راسه حتى الحاجبين فوق عينيه اللامعتين .. وخيل الى اننى أعرف هذا الوجه !.. ،كان عدد من الزعماء القوزاق يحفون به . وكان الأب جراسيم واقفا الى جانب الدرج ، ممتقع اللون ، مرتعدا ، وقد امسك بيده صليبا ، وبدا كأنه يضرع الى الله صامتا أن يرحم الضحايا التى ستهلك .. وسرعان ما نصبت مشنقة فى وسط الساحة . وحين اقتربنا من الدرج ، فرق « الباشكير » الجموع المحتشدة ، وقدمونا الى بوجاتشيف . وانقطع صوت الأجراس ، وخيم صمت عميق .

وسأل الغاصب : « ايهم آمر الموقع ؟ » . فخرج الوكيل الخائن من الجمع ، واشار الى ايفان كوزمتش . فالقى بوجاتشيف على الرجل العجوز نظرة حانقة ، وقال له : « كيف جرؤت على مقاومتى ، وانا مولاك القيصر ؟ »

فاذا بالآمر – وكان خائر القوى من وطأة جرحه – يستجمع ما بقى له من عزيمة فيجيب بصوت قوى : « لست مولاى القيصر .. ما أنت الا لص غاصب . هل تسمع ؟ »

فقطب بوجاتشيف حاجبيه ، ولوح بمنديل ابيض ، فسارع عدد من القوزاق ، فقبضوا على الضابط العجوز ، وقادوه الى المشنقة . ورايت الباشكيرى المشوه – الذى استجوبناه فى الليلة البارحة – راكبا على عارضة المشنقة ، وبيده حبل . وما هى الا برهة ، حتى رايت المسكين ايفان كوزمتش يتأرجح فى الهواء . ثم جاء دور ايفان اجناتتش فقال له بوجاتشيف : «تعال احلف يمين الولاء للقيصر بطرس فيدوروفتش ! » . فأجاب ايفان اجناتتش يردد كلام آمره : « لست قيصرنا . ما أنت الا لص مغتصب ! » .. فلوح بوجاتشيف مرة أخرى بمنديله . ورايت الملازم الشجاع يشنق الى جانب رئيسه العجوز .

ثم جاء دورى .. والقيت على بوجاتشيف نظرة قوية جريئة، وانا اتهيأ لترديد الجواب الذى قاله رفيقى الشهمان، فاذا أنا – على دهشة منى شديدة – **أرى شفابرين واقفا بين القادة العصاة ، وقد حلق شعر راسه على شكل دائرة ، وارتدى القفطان القوزاقى .** ثم رايته يقترب من بوجاتشيف، ويهمس فى اذنه بشىء ، فيقول بوجاتشيف دون أن يلقى على نظرة واحدة : « اشنقوه ! »

وضعوا العقدة فى عنقى ، واخذت اردد بعض الصلوات بصوت منخفض ، استغفر الله عن جميع خطاياى ، واضرع اليه ان يحفظ اولئك الذين احبهم . . وقادونى الى المشنقة . وسمعت جلادى يرددون على مسامعى قولهم : «كن شجاعا ، كن شجاعا ! » . . ولعلهم كانوا يريدون ان يشجعونى حقا . وفجأة سمعت صرخة تقول : « انتظروا ، انتظروا أيها

المناحيس ! » .. فتوقف الجلادون ، ورأيت سافيليتش جاثيا على قدمى بوجاتشيف ، وسمعت « المربى » المسكين يخاطبه بقوله : « ماذا تجنى يامولاى من قتل سيد صغير مسكين ؟ .. دعه وشأنه ، ندفع لك فدية ! .. واذا كان لابد لك حتما من ان تضرب مثلا ، وأن تبث الرعب ، فمرهم بأن يشنقونى أنا الشيخ الهرم ! »

فأشار بوجاتشيف بيده ، فاذا بهم يحلون العقدة عن عنقى ، ويطلقون سراحى قائلين : « ان اباتا قد عفا عنك ! » .. ولا أستطيع أن أقول اننى فرحت – فى تلك اللحظة – فرحا خالصا لايداخله ألم .. لقدتملكتنى عواطف ملتبسة ! .. وقادونى نحو الغاصب وأركعونى أمامه ، فمد الى بوجاتشيف يده المفضضة ، فهتف الناس من حولى يقولون : « قبل يده ! » .. **الا أننى كنت أفضل أن ينزلوا بى أقصى انواع التعذيب على أن أرضى بهذا الذل !**

وسمعت سافيليتش – وكان ورائى يدفعنى فى ظهرى – يهمس فى أذنى قائلا : « بترو اندريفيتش ، عزيزى ! .. لاتكن عنيدا . أن هذا لايكلفك شيئا ، ابصق على الأرض وقبل يد هذا المج .. قبل يده ! » . ولكنى لم أحرك ساكنا ، فخفض بوجاتشيف يده ، ثم قال : « لاشك أن السيد النبيل قد فقد صوابه من شدة الفرح .. انهضوه ! »

فانهضونى ، وأطلقوا سراحى . وظللت واقفا أتأمل هذه المهزلة الفظيعة تتتالى فصولها أمامى .

***

وقيد السكان الى حلف اليمين ، فكانوا يقتربون واحدا بعد آخر ، فيقبلون الصليب ، ثم يحيون الغاصب . ورأيت

جنودنا يمرون أمام خياط الطابور ، فيقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلم ، ثم يتجهون نحو بوجاتشيف فيقبلون يده ، فيمن عليهم بعفوه ويقبلهم فى عداد عصابته . ودام هذا كله ثلاث ساعات طوال . وأخيرا ترك بوجاتشيف مكانه ، ونزل الى الشارع مع أركان حربه ، وأتوه بحصان أصهب مجهز بأجمل عدة .. ورفعه اثنان من القوزاق من ذراعيه الى صهوة جواده ، وقال للأب جراسيم انه ذاهب الى العشاء فى بيته . وفى هذه اللحظة ، سمع صوت امرأة ، فرأيت عددا من هؤلاء اللصوص يجرون فاسيليسا ييجورفنا على درج الباب ، وقد تشعث شعرها ، وعريت من ملابسها . وكان أحدهم قد اتسع وقته لارتداء معطفها ، وكان الآخرون بسبيل اخراج وسائد وصناديق وأوان وملابس وأنواع كثيرة من الأثاث والثياب .

وكانت المرأة المسكينة تصرخ : « اسمحوا لى أن أصلى وأن أتوب الى الله .. خذونى الى جانب ايفان كوزمتش ! »

فلما رأت المشنقة فجأة ، عرفت زوجها ، فصرخت وقد طاش عقلها : « أيها اللصوص ، ماذا صنعتم به ! .. آه ياعزيزى ايفان كوزمتش ، أيها المحارب الشجاع !.. لم تقدر عليك الحراب البروسية ، ولا قدر عليك الرصاص التركى .. لم تمت فى ساحة القتال ، وانما قتلك مجرم هارب من السجن ! » . فقال بوجاتشيف : « أسكتوا الساحرة العجوز ! » .. فاذا بقوزاقى شاب يهوى بسيفه على رأسها ، فتسقط على الدرج ميتة . ومضى بوجاتشيف فى سبيله وانطلقت الجموع فى أثره .

(٨) — ضيف غير منتظر

« ان ضيفا غير منتظر ..
« لأسوأ من تترى » — مثل روسى

• **خلت** الساحة العامة من الناس .. وظللت من هول مارأيت واقفا لا أتحرك ، ولا أستطيع أن أجمع شتات فكرى ، ولا أن أعزم على شىء من أمرى .. **وكان جهلى بالمصير الذى آلت اليه ماريا ايفانوفنا يعذبنى أكثر من أى شىء آخر .** أين هى الآن ؟ .. ماذا وقع لها ؟ .. هل اتسع وقتها للاختباء ؟ .. هل التجأت الى مكان مأمون ؟

ثم دخلت بيت الآمر ، وأنا فيما أنا فيه من تساؤل وقلق وغم .. كان كل شىء فى البيت خاليا . فالكراسى والمناضد والصناديق والأوانى .. كل شىء قد حطم وأفرغ من محتوياته . وصعدت سلما صغيرا يؤدى الى الطابق الأول .. صعدته عدوا وأنا أقفز درجاته أربعا أربعا ، حتى دخلت غرفة « ماريا ايفانوفنا » ، لأول مرة فى حياتى . فرأيت سريرها قد نبشه اللصوص ، ورأيت خزانتها محطمة منهوبة ، ورأيت القنديل الصغير مازال مشتعلا أمام الخزانة الزجاجية التى تضم صور القديسين — وانثنى بقرها اللصوص — ورأيت المرآة المعلقة بين نافذتين مازالت سليمة لم يمسوها بأذى .. ولكن أين هى سيدة هذه الحجرة المتواضعة ؟ .. وافتنى فكرة رهيبة .. تصورت ماشا بين هؤلاء المجرمين ، فانقبض صدرى ، وذرفت دموعا مرة ، وأنا أنادى حبيبتى بصوت مرتفع .. **فاذا أنا أسمع حركة خفيفة ، واذا أنا أرى «بالاشا» تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة .**

قالت وهى تضم يديها ، احداهما الى الأخرى : « آه ياپترو اندريفتش ، ماهذا اليوم ؟ .. ماهذه الأهوال ! » .

فسألتها فارغ الصبر : «وماريا ايفانو فنا ؟.. ماذا حل بها ؟». فأجابت : « الآنسة مازالت حية .. انها مختبئة عند آكولينا بامفيلو فنا !» . فهتفت مذعورا : «فى منزل الأب جراسيم ؟ ! .. ولكن ، الى هناك أينما ذهب بوجاتشيف ! »

وهرعت الى الشـارع ، اركض نحو منزل الأب جراسيم ركضا سريعا. كان بصرى زائغا ، وروحى ذاهلة. وسمعت صراخا وقهقهات وغناء .. كان بوجاتشيف يطعم ويشرب مع رفاقه . وكانت « بالاشا » قد تبعتنى ، فارسلتها خفية الى آكولينا بامفيلو فنا ارجوها ان تأتى الى لقائى . فما هى الا لحظة ، حتى خرجت زوجة الأب جراسيم الى الدهليز الذى كنت انتظر فيه ، وبيدها زجاجة فارغة . فسالتها فى انفعال شديد : « ارجوك .. اين ماريا ايفانو فنا ؟ » فأجابت :

ـ انها هنا ، هذه الحمامة العزيزة ..على سريرى ، وراء الحاجز . نعم ، يابترو اندريفتش ، لقد كانت من الموت قاب قوسين او ادنى ، الا ان الله سلم ، وتم كل شىء على مايرام . كان اللص قـد جلس الى المائدة ، حين افاقت من اغمـائها فتأوهت ! .. كدت أسقط على الأرض من شـدة الرعب . وسمعها اللص ، فاذا هو يسأل : «من ذا الذى يتباكى عندك ياعجوزتى ؟ » .. فحييت هذا الشـقى تحية عميقة ، وأنا اقول : « انها ابنة اختى ، ياسـيدى . وهى مريضة منـذ اسبوع» . فقال : «وهل هى صبية ، ابنة اختك هذه ؟ » . فقلت : «نعم انها صبية ياسيدى» . قال : «ارنيها اذن أيتها العجوز ! » .. وتوقف قلبى عن الخفقان من شدة الذعر ، ولكن لم يكن ثمة مهرب ، فقلت : « أمرك مطاع ياسيدى ، الا ان ابنت لاتستطيع ان تنهض لتاتى لتحية سعادتك » . فقال : « لابأس ، اذهب انا اليها » !

تصور انه ذهب يراها ، هذا اللص ! .. انتقل الى الجانب الآخر من الحاجز ، وسحب الستائر . ما رأيك ؟ .. نظر اليها بعينيه الشبيهتين بعيني العقاب ، ولكن كان هذا كل شيء ! .. لقد وقانا الله هذه المحنة ! صدق اننا تهيأنا أنا والأب جراسيم لأن يقتلنا . ومن حسن الحظ أن الحمامة الغالية لم تعرفه ابدا ! ..يا الهى ، رب السموات ! ياله من يوم ! .. يعجز اللسان عن الكلام ! مسكين ايفان كوزمتش ؟ ..من ذا الذى كان يفكر فى هذا ؟..وفاسيليسا ييجورفنا ؟ .. ثم ايفان اجناتتش ، ما كان مأخذهم عليه ؟ .. وأنت ، كيف لم يمسوك بأذى ؟ .. وشفابرين اليكسى ايفانتش ؟ .. رجل طيب مستقيم ! هه ! ولكن هل تصدق ؟ .. اننى حين كنت أتكلم عن ابنة اختى المريضة رمقنى بنظرة كأنما هو يريد أن يطعننى بضربة سكين ! الا أنه لم يقل شيئا .. انه يستحق الشكر على كل حال !

وفى هذه اللحظة ، سمعت صيحات الضيوف المخمورة ، وسمع الأب جراسيم ينادى زوجته.. كان الضيوف يطلبون خمرا . واضطربت الزوجة وقالت : « بترو اندريفيتش ، عد الى بيتك ! .. لايتسع وقتى للبقاء معك ، فان السفلة يسكرون ويعربدون . أرجو أن لايوقعك حظك التعس بين أيدى هؤلاء السكارى ! .. وداعا يابترو اندريفيتش ! ليكن ما يكون ! .. ارجوا أن لايتخلى عنا الله ! »

***

وغابت .. وشعرت بشىء من الطمأنينة ، فاتجهت نحو مسكنى . وفيما انا أجتاز الساحة الكبرى ، رأيت عددا من « الباشكير » تجمعوا حول المشنقة ، وأخذوا ينزعون عن

ارجل المشنوقين احذيتهم . ولم أستطع أن أكظم غيظى الا فى عناء ، وما كان تدخلى يسفر عن أى فائدة على كل حال .. ورأيت لصوصا يطوفون فى الحصن ركضا ينهبون بيوت الضابط . وكانت تنبعث أصوات العصاة من كل مكان وهم يسكرون . عدت الى بيتى ، فرأيت سافيليتش ينتظرنى على عتبة الباب . فلما رآنى هتف : « الحمدلله ! .. كدت اظن أن المجرمين قد قبضوا عليك مرة أخرى . هل تصدق يا عزيزى بترو أندريفتش أن المجرمين قد نهبوا كل ما فى البيت ! .. لم يبق لنا شىء ، لا ملابس ولا أوانى ، ولا شىء البتة . ولكن لاضير ! .. لنحمد الله على انهم ابقوا على حياتك . هل تعرفت زعيمهم ياسيدى ؟ »

ـ كلا .. من هو ؟

ـ كيف لم تتعرفه ياعزيزى ؟ .. اتنسى ذلك السكير الذى اضطرك أن تهدى اليه معطفك فى النزل ؟ كان معطفا من جلد الأرنب جديدا كل الجدة ، فتقه هذا الحيوان تفتيقا حين ارتداه ؟

شدهت ! .. حقا ان الشبه بين بوجاتشيف وبين ذلك الدليل قوى جدا . وايقنت أنه هو ذلك الدليل عينه ، ففهمت لماذا عفا عنى . ولم يسعنى الا ان أعجب لتعاون الظروف على هذا النحو : معطف صبى أهديه الى متشرد ، فاذا هو يوقينى ميتة شنيعة ! .. سكير من رواد الحانات يحاصر حصوننا ويهز الدولة بأسرها !

سألنى سافيليتش ، وفيا لعاداته : « هل تريد أن تأكل شيئا ؟ .. ليس عندنا ما نطعمه هنا . سأمضى أبحث عن شىء أهيئه لك ! »

وبقيت وحدى ، وأخذت أفكر : ماذا افعل ؟ .. ان بقائى

فى الحصن تحت سلطان هذا اللص ، أو ارتباطى بعصابته ، أمران لايتفقان مع صفة الضابط التى احملها . ان الواجب يقتضينى أن امضى الى حيث يمكن أن أقدم لوطنى – فى الظروف الحاضره – خدمات تفيده . الا أن قلبى ينصحنى ملحا بأن أبقى الى جانب ماريا ايفانوفنا أدافع عنها وأحميها . ورغم تنبؤى بأن تغيرا سريعا سيطرأ على الموقف من دون ريب ، فاننى لم أستطع ان أمنع نفسى من الارتعاد ، حين فكرت فى الاخطار التى ما زالت ماريا معرضة لها .

وقطع تأملاتى وصول رسول قوزاقى ، هرع يبلغنى أن ((القيصر العظيم)) يستدعينى اليه ! .. فسألته وانا استعد لأن أتبعه : « أين هو ؟ » . فأجاب القوزاقى : « فى بيت الآمر .. ان مولانا – بعد أن تغدى – ذهب الى الحمام ، وهو الآن يستريح . واضح ياصاحب النبالة ، أنه شخص عظيم . لقد تفضل أثناء الطعام ، فأكل خنزيرين مقليين .. وكان حمامه من شدة الحرارة بحيث أن تاراس كوروتسكين لم يستطع أن يطيقه ، فترك الفرشاة لفوما بكباييفا ، ولم يسترد حالته الطبيعية – برش الماء البارد على جسده – الا بعد مدة طويلة . ويقال ان دلائل عظمة مولانا قد ظهرت منقوشة على صدره ، فعلى أحد طرفى الصدر نسر ذو رأس كبيرة ، كقطعة من ذات الخمسة كوبيكات ، وعلى الطرف الثانى صورته !))

لم أعتقد أن من الضرورى أن أخالف القوزاقى فى رأيه . وتبعته الى بيت الآمر ، وأنا أتخيل ماعسى أن يكون لقائى لبوجاتشيف ، وما عسى أن يؤول اليه هذا اللقاء . ولا بد أن القارىء يفهم بسهولة أننى لم أكن هادئا كل الهدوء .

***

حين وصلت الى بيت الآمر ، كان الظلام قد بدأ يهبط ، وكانت المشنقة المشئومة وضحاياها ترى فى الظلام أشباحا سوداء . وكان جسم الآمرة المسكينة لايزال ملقى تحت درج الباب ، حيث يقف ديدبانان من القوزاق . ودخل دليلى ليؤذن بوصولى . وسرعان ما عاد ، فقادنى الى تلك الغرفة عينها التى ودعت فيها بالأمس ماريا ايفانوفنا وداعا رقيقا .

رأيت أمام عيني منظرا فذا : رأيت بوجاتشيف وعشرة من زعماء القوزاق تحلقوا حول مائدة مفروشة بغطاء ، ومملوءة بالقنانى والأقداح .. كانوا جميعا يرتدون قبعات وقمصانا ملونة . وكانت خدودهم المنتفخة متضرجة بتأثير الخمر . وكانت أعينهم تلمع كالشرارات .. لم أر بينهم شفابرين ، ولا رأيت الوكيل ، هذين الخائنين الحديثى العهد بالخيانة . فلما رآنى بوجاتشيف داخلا هتف يقول : « آه ، صاحب النبالة ! .. أهلا وسهلا ، تفضل واجلس ! »

وكان الجميع يتعاملون كرفاق ولا يبدو عليهم أنهم يشعرون أفسح لى الضيوف مكانا ، فجلست صامتا الى ركن المائدة . وكان جارى شابا قوزاقيا ، جميلا ، ممشوق القامة، لم يلبث أن سكب لى قدحا من الخمر ، الا أننى لم ألمس القدح البتة . وجعلت أفحص هذا الاجتماع فى كثير من حب الاستطلاع . كان بوجاتشيف جالسا فى مكان الشرف ، متكئا على المائدة ، وقد أسند لحيته السوداء على قبضة يده . كانت قسمات وجهه منسجمة ، لا تخلو من جمال ، ولا توحي بشيء من القسوة . وكان يلتفت كثيرا الى رجل في

نحو رئيسهم باحترام خاص . وكانوا يتحدثون عن هجوم الصباح ، وعما سيقومون به فى المستقبل من أعمال . وكانوا لايتحرجون أبدا من معارضة آراء بوجاتشيف . وفى هذا المجلس الحربى ، قرروا أن يتجهوا الى (اورنبورج) ، وهى حركة كانت تنطوى على كثير من الجسارة ، وأوشكت أن تكلل بنجاح مفجع . وقرروا أن يسيروا منذ الغد . وقال بوجاتشيف : « والآن ايها الأخوة ، فلنغن نشيدى المفضل ، قبل ان ننام . ابدأ ياتشوماكوف ! »

فلم يلبث جارى أن أخذ يغنى بصوت كصوت الناى ، أغنية حزينة مما يغنيه ربابنة المراكب . ثم أخذ الجميع يغنون معا :

« على رسلك أيتها الغابة الفسيحة .. لا تحدثى صخبا ،
« فتمنعى الفارس المغوار من الاسترسال فى تفكيره .
« ذلك أننى سأمثل — فى الغداة — أمام قاض رهيب ،
« أمام القيصر نفسه ! ..
« سيهتف القيصر : قل لى أيها الشجاع، يا ابن الفلاح،
« من كان رفاقك فى النهب ؟.. وهل كانوا كثيرين ؟
« يا قيصراه ، يا أمل جميع المسيحيين !
« سأقول لك الحقيقة كلها : « كان لى أربعة رفاق أمناء :
« الأول هو الليل الحالك .. والثانى خنجر من فولاذ ..
« والثالث جوادى المقدام .. والرابع قوسى المشدود .
« وكانت رسلى نبالا أحمرها بالنار ! »
« وسيجيبنى القيصر ، أمل جميع المسيحيين ، بقوله :
« مرحى أيها الشجاع ، يا ابن الفلاح ..

« لقد عرفت كيف تنهب ، وعرفت كيف تجيب .
« سوف انعم عليك ..
« سوف أنعم عليك بقصر منيف ، فى قلب السهول :
« سوف انعم عليك .. بمشنقة ! »

***

لا استطيع ان اصف قوة تأثرى بهذه الأغنية الشعبية المخصصة للمشنقة ، والتى يغنيها أناس اعدوا للشنق . ان الوجوه الرهيبة ، والاصوات المتناغمة ، ورنة الحزن التى يبعثونها فى هذا الكلام المعبر فى حد ذاته .. هذا كله قد بث فى جسمى قشعريرة من رعب حزين . وابتلع الضيوف كأسا أخيرة ، ونهضوا عن المائدة ، واستأذنوا بوجاتشيف .. وأردت أن أتبعهم ، الا أن بوجاتشيف استوقفنى قائلا :
((ابق . أريد أن أكلمك !))

وبقينا منفردين .. ودام الصمت بضع لحظات . وكان بوجاتشيف ـ أثناء ذلك ـ يحدق فى ، مغمضا فى بعض الأحيان عينه اليسرى نصف اغماضة . وكان ذلك يكسب وجهه هيئة خبيثة ساخرة ، ثم اذا به ينطلق فى ضحكة بلغ من شدة تعبيرها عن الفرح الصريح ، اننى ـ حين رأيته على هذه الحال ـ اخذت أضحك بدورى دون ان أعرف لماذا . وقال : « لاشك ان صاحب النبالة يعترف أنه خاف حين وضع رجالى الحبل فى عنقه .. كاد لسانك أن يتدلى نصف قدم !.. كدت تتأرجح فى الفضاء لولا خادمك !.. نعم ، سرعان ما تعرفت عجوزك الهرم . هل كان يدور بخلدك يا صاحب النبالة ان الرجل الذى قادك الى الفندق ، هو القيصر العظيم نفسه؟ (هنا اكتسى وجهه مسحة رصينة)

لقد أخطأت فى حقى كثيرا ، ولكننى عفوت عنك لكرمك، ولأنك خدمتنى فى اللحظة التى كنت مضطرا فيها الى الاختباء عن عيون أعدائى . ولكن ، انتظر قليلا ، سترى كيف أكافئك يوم أسترد عرشى ! .. **هل تعدنى بأن تخدمنى فى حماسة واخلاص ؟ »**

وبدا لى سؤال هذا السافل وجرأته على الحق مضحكين، حتى أننى لم أستطع ان أمنع نفسى عن التبسم . فسألنى وهو يقطب حاجبيه : « مم تضحك ؟.. أتراك لا تعتقد بأننى القيصر؟ .. أجب بلا تردد ولا مواربة». فشعرت باضطراب .. كان يستحيل على أن اعترف بهـذا المتشرد ملكا ، والا برهنت على جبن لا يغتفر . وكان من الصعب ايضـا أن اواجهه بأنه لص ، والا عرضت حياتى للخطر . ان الكلام الذى كنت مستعدا لقوله فى لحظات الاستياء الأولى — الى جانب المشنقة ، أمام الجمهور المحتشد — أصبح يبدو لى صلفا لا طائل تحته .. ترددت فى الجواب ، وكان بوجاتشيف ينتظر جوابا وهو متجهم الوجـه . واخيرا تغلب الشعور بالواجب — فى نفسى — على الضعف الانسانى (اننى لا أتذكر الآن تلك الدقيقة فى سرور عظيم) فالتفت نحو بوجاتشيف أقول : « اسمع !.. سأقول لك الحقيقة . فكر انت نفسك فى الأمر . **كيف أستطيع أن أعترف بأنك قيصر ؟ .. انك رجل ذكى ، وفى وسعك — أن أنا زعمت لك ذلك — أن تفهم اننى أخادعك ! »**

فقال : « من اكون اذن فى نظرك ؟ »

— الله أعلم !.. على أنك ، كائنا من كنت ، تلعب لعبة خطرة .

فرمانى بنظرة سريعة ثم قال : « اذن انت لا تعتقد بأننى

القيصر بطرس فيودوروفيتش ؟.. حسنا ! ولكنك تسلم معى بأن الحظ حليف الشجاع . ألم يحكم جريشكا اوتربيبف فى عصره ؟ (١) .. اعتبرنى من تشماء ولكن لا تتركنى . هذا هو المهم !.. **اخدمنى فى حماسة واخلاص ، اجعلك ((فيلد مارشال)) وأميرا .. ما رأيك ؟))**

فأجبت فى عزم وقوة : ((كلا .. اننى انسان شريف ، وقد حلفت يمين الولاء للامبراطورة ، ولااستطيع ان أخدمك . واذا كنت تريد لى الخير حقا ، فدعنى أمضى الى أورنبورج)) .
فاطرق بوجاتشيف يفكر ، ثم قال : ((**هل تعدنى – على الأقل – اذا انا أطلقت سراحك ، بأن لا تحارب فى صفوف اعدائى ؟)) . فاجبت :**

– كيف تريد أن أعدك بذلك؟.. انك لتعرف – أنت نفسك – ان هذا الأمر ليس منوطا بارادتى . **أنت الآن قائد ، وانك لتطلب الى رجالك الطاعة . فكيف استطيع أن أرفض الحرب حين تقتضى الضرورة ان أشترك فيها ؟..** ان حياتى بين يديك ، فان تركتنى شكرتك ، وأن قتلتنى كان حسابك على الله . اما انا ، فلم أقل لك غير الحقيقة !

وبدا على بوجاتشيف ان صراحتى تفاجئه ، فقال وهو يربت على كتفى : ((ليكن ما تريد !.. انا ان عاقبت كان عقابى صارما ، وان عفوت كان عفوى كاملا .. اذهب الى حيث تريد ، وافعل ما يبدو لك !.. تعال ودعنى فى الغد . والآن امض الى النوم ، فاننى نعس ايضا !))

تركت بوجاتشيف ، وخرجت الى الشارع .. كان الليل هادئا ، وباردا ، والقمر والنجوم تلمع فى السماء ، وتغرق الساحة الكبرى والمشنقة بالنور .. كان كل شىء فى الحصن

(١) الاسم المظنون للمحتال المعروف باسم ((ديمترى الاول المزيف)) ١٦٠٥ – ١٦٠٦

يبدو ساكنا . وكانت نوافذ الحانة وحدها مضاءة ، تخرج منها أصوات بعض المتأخرين من اللاهين . **ونظرت الى بيت القس ، فرأيت الأبواب والنوافذ مغلقة .. وان كان كل شيء يبدو فى الداخل ساكنا !**

ووصلت الى مسكنى ، فوجـــدت سافيليتش فى حالة من القلق العميق ، فلما علم أن حريتى قد ردت الى ، فرح فرحا عظيما . وقال وهو يصلب : « الحمد لله !.. سنترك الحصن منذ الفجر ، ونمضى الى حيث يشاء الله !.. لقد أحضرت لك يا عزيزى شيئا تتعشاه . فتعال كل ، ثم نم الى الصباح نوما هادئا ، كنوم الفــأر فى أحضـــان القش ! » .. فعملت بنصيحته . وبعد أن التهمت الطعام فى شهوة كبيرة ، غفوت على أرض الغرفة محطم الجسم والروح جميعا .

(٩) فراق تحت حكم الظروف !

« أواه ما أحلاه ..
« يوم عرفتك فيه .. يا حبيبتى الجميلة !»
« وآه ما أشقانى ، اذ أفارقك الآن .
« لكاننى افارق روحى ! » ـ اغنية

• **أيقظنى** قرع الطبل بكرة فى الغداة ، فذهبت الى مكان الاجتماع ، فرأيت عصابات بوجاتشيف تصطف عند المشنقة، التى ما زال ضحايا الأمس معلقين عليها . ورأيت القوازق قد امتطوا خيولهم ، والجنود قد حملوا اسلحتهم ، والرايات تخفق ، وعددا من المدافع ـ بينها مدفعنا ـ قد شدت الى العربات .. ورأيت السكان قد تجمهروا جميعا ينتظرون ـ كذلك ـ خروج الغاصب . ورأيت قوزاقيا واقفا أمام درج الباب ، ممسكا بمقود حصان أصهب رائع من عرق الكرخيز . وتلفت ابحث عن جثمان الآمرة ، فوجدت أنهم قد وضعوه جانبا ، وغطوه بغطاء . واخيرا خرج بوجاتشيف من الدهليز، فرفع الجمهور قبعاته . وتوقف بوجاتشيف على درج الباب يحيى الناس . وناوله أحد « القدماء » (١) كيسا مملوءا بالدنانير ، فأخذ بوجاتشيف يرميها الى الجمهور بكلتا يديه، واخذ الناس يسارعون الى تلقفها متزاحمين ، مصوتين .. واصيب بعض الاشخاص من جراء ذلك بأذى غير يسير . وراتى رفاق بوجاتشيف يصطفون حول زعيمهم ، وكان من بينهم شفابرين . **التقت نظرتانا ، واستطاع أن يقرأ فى عينى الاحتقار والازدراء ، فاشاح وجهه حانقا ، متظاهرا بالهزء والسخرية** . ولمحنى بوجاتشيف بين الجمهور، فحيانى بحركة من راسه ، ثم نادانى اليه ، وقال :

---

(١) جمع «مقدم» .. وهى رتبة عسكرية ..

ـ اسمع !.. اذهب حالا الى اورنبورج ، وقل للحاكم وسائر القادة أن ينتظرونى هنالك فى غضون أسبوع .. انصحهم ان يستقبلونى كما يستقبل الأبناء أباهم فى حب وخضوع . وبغير ذلك ، لا يستطيعون أن يوقوا أنفسهم عذابا شديدا .. على الطائر الميمون يا صاحب النبالة !

ثم التفت الى الجمهور ، وقال وهو يشير الى شفابرين : « اسمعوا يا ابنائى ، هذا هو آمركم الجديد ، فأطيعوه فى كل امر ، وهو المسئول امامى عنكم وعن الحصن ! »

سمعت هذا الكلام فى هول فظيع . أيصبح شفابرين آمر الموقع ، وتظل ماريا ايفانوفنا تحت سلطانه ؟.. رباه ! ما سيكون اذن من أمرها ؟

ونزل بوجاتشيف عن درج الباب ، واتوه بالحصان ، فامتطاه فى خفة ورشاقة ، دون أن ينتظر معونة القوزاقيين اللذين ارادا أن يسنداه.. وفى هذه اللحظة رأيت سافيليتش يترك الصفوف ، ويقترب من بوجاتشيف ممسكا بورقة .. ولم أستطع أن أحزر ما يريد . وسأله بوجاتشيف فى وقار : « ما هذا ؟ »

فأجابه سافيليتش : « تفضل بقراءة الورقة ، فتعلم المسألة ! » .. فتناول بوجاتشيف الورقة ، وظل مدة طويلة يمحصها فى كثير من الجد . ثم سأله : « لماذا خطك ردىء الى هذا الحد؟.. لم تستطع عينانا ان تفكا هذه الكتابةالسيئة. اين رئيس أمناء السر ؟ » .

فما ان قال بوجاتشيف ذلك ، حتى تقدم شاب نشيط يرتدى بزة عريف . فقال له الغاصب وهو يناوله الورقة : « اقرأ بصوت مرتفع ! » .. وكنت قلقا ، اتحرق شوقا الى معرفة ما عسى أن يكون سافيليتش قد كتب لبوجاتشيف . وأخذ امين السر يتهجى جهارا : « ثوبان للمنزل : أحدهما من

قطن ، والثانى من حرير مقلم . المجموع : ٦ روبلات » .
فقال بوجاتشيف وهو يقطب حاجبيه : « ما معنى هذا كله ؟ »
فأجاب سافيليتش بهدوء : « قل له أن يتم القراءة ! »
واستأنف أمين السر يقرأ : « بزة عسكرية من صوف اخضر ناعم ، قيمتها ٧ روبلات .. سروال من صوف أبيض، قيمته ٧ روبلات .. اثنا عشر قميصا من كتان هولندى بأكمامها ، قيمتها ١٠ روبلات . حقيبة تحتوى على عدة تحضير الشاى ، قيمتها روبلان ونصف .. »
فقاطع بوجاتشيف قائلا : « ما هذا الهذر السخيف ؟.. ما شأنى وشأن الحقائب والسراويل ذات الاكمام ! » ..
فتنحنح سافيليتش يريد أن يشرح المسألة ، وقال : « هذه - ان أمرت - قائمة بأشياء سيدى التى نهبها اللصوص » .
فصرخ بوجاتشيف بلهجة متوعدة : « أى لصوص تعنى؟ »
- معذرة !.. لقد افلت هذا الكلام من لسانى .. لا أريد ان أقول اللصوص ، انهم رجالك المغاوير ، قد نهبونا قليلا .. لا تغضب ، فلكل جواد كبوه ! .. مره أن يتم القراءة .
فقال بوجاتشيف : « هيا أتم القراءة ! »
واستمر أمين السر يقرأ : « غطاءان ، احدهما هندى والثانى من قطن قيمتهما ٤ روبلات . معطف من فراء الثعلب مبطن بجوخ قرمزي، قيمته ٤٠ روبلا . ثم معطف من جلد الأرنب ، قدم الى سعادتكم فى الفندق ، وقيمته ١٥ روبلا » .
فصرخ بوجاتشيف وعيناه تقدحان شررا : « ما هذا الهذر ؟ »
أعترف بأننى خفت على خادمى . وقد اراد أن يسترسل فى شروح جديدة ، الا أن بوجاتشيف قاطعه ، وهو ينتزع الورقة من بين يدى أمين السر ويرميها فى وجهه ، « كيف

تجرؤ على ازعاجى بمثل هذه الترهات، أيها العجوز المجنون. نهبوك ؟ !.. كلام جميل . الا تحمد الله ، أيها العجوز الهرم ، على أنك لم تشنق ، أنت وسيدك ، الى جانب هؤلاء الخونه ! .. معطف من جلد الارنب ! .. اريد أن اريك معطفا ! .. هل تعلم أن فى امكانى أن آمر بسلخك حيا ، وبدبغ جلدك ليصنع منه معطف ؟ »

فاجاب سافيليتش : « انك تعلم أننى خادم ، وأن على أن أحافظ على أموال سادتى » .

وبدا بوجاتشيف فى وضع من يريد أن يحافظ على وقاره وجلاله ، فأشاح بوجهه ، ومضى — دون ان يضيف الى ماقاله كلمة واحدة — يتبعه شفابرين و «القدماء» . وغادرت العصابة الحصن فى نظام تام ، وتبعها الشعب يريد أن يشيع بوجاتشيف . وبقيت وحيدا مع سافيليتش . وكان المسكين لا يزال ممسكا « بالقائمة » يتأملها فى أسف عميق .. لقد أراد أن يستفيد من حسن التفاهم الذى ساد بينى وبين بوجاتشيف ، الا انه لم ينجح فى هذا المشروع المعقد. واخذت ألومه على فرط اخلاصه هذا . ولم أستطع أن أمنع نفسى عن الضحك . فقال : « اضحك ما شئت يا سيدى ، ولكن سترى حين ينبغى لنا أن تعوض عن هذه الاشياء ، أن الأمر ليس مضحكا الى هذا الحد ! »

***

وسارعت الى بيت القس آملا أن أرى ماريا ايفانوفنا . فأبلغتنى زوجته نبأ حزينا . قالت ان ماريا ايفانوفنا اصيبت بحمى شديدة فى الليل ، ففقدت وعيها ، وكانت تهذى . وأدخلتنى زوجة القس الى غرفة ماريا ايفانوفنا ، فاقتربت من سريرها على مهل . ان التغير الذى ألم بملامح وجهها

بصرت بقوقازى بقى وراء رفاقه ، فهممت بأن أضربه بسيفى ، لولا انه خلع قبعته . . (ص ١٠٨)

ليصعقنى دهشة .. لم تستطع المريضة أن تعرفنى .. بقيت أمامها مدة طويلة ، دون أن أصغى الى ما يقوله الأب جراسيم وزوجته الطيبة ، وأغلب الظن انهما كانا يحاولان مواساتى . وحاصرتنى أفكار سود : ان وضع هذه اليتيمة المسكينة ، وبقاءها وحيدة بين عصاة أشرار ، ثم عجزى عن القيام بشىء فى سبيلها .. ان ذلك كله ليملأنى رعبا . **على أن شفابرين هو الذى كان يقلقنى أكثر من أى شىء آخر !** .. لقد أولاه الغاصب سلطات واسعة ، وأصبح آمر الموقع الذى تقيم فيه هذه الفتاة البائسة ، التى يكرهها ويحقد عليها . فهو اذن قادر على أن يفعل كل شىء . ماذا يجب أن أعمل ؟ .. كيف أساعد ماريا ايفانوفنا ؟ كيف أنقذها من يدى هذا الفاجر ؟ .. **لم يبق الا وسيلة واحدة : أن أمضى الى أورنبورج فى أقرب وقت ، لأعجل تحرير (بيلوجورسكايا) ، وأساهم فى ذلك بكل ما أوتيت من قوة !** .. عزمت أمرى على الذهاب الى اورنبورج حالا ؛ فاستأذنت القس وآكولينا بامفيلوفنا ، وأوصيتهما خيرا بتلك التى أعدها منذ الآن زوجة لى . وتناولت يد الفتاة البائسة ، فقبلتها مغرقا اياها بالدموع .

وقالت امرأة القس وهى تشيعنى الى الباب : « وداعا يابترو اندريفتش ، قد نلتقى فى أيام أفضل .. لا تنسانا ، واكتب الينا مااستطعت !.. لم يبق للمسكينة ماريا ايفانوفنا غيرك نصيرا وحاميا ! »

وخرجت من الساحة الكبرى ، وتوقفت لحظة أحيى المشنقة ، ثم تركت الحصن متجها نحو (اورنبورج) ، يصحبنى سافيليتش الذى يفعل كل ما أفعل . وكنت أسير غارقا فى تأملاتى ، حين سمعت ورائى ـ فجأة ـ وقع حوافر حصان . فالتفت فاذا بقوزاقى قادم من الحصن يعدو ورائى على حصان ، وقد أمسك بلجام حصان آخر ، وجعل يشير الى ،

فتوقفت عن المسير ، وما لبثت ان عرفت فيه « الوكيل » . فلما وصل الى ، نزل عن حصانه ، ومد الى لجام الحصان الآخر ، وهو يقول : «ان جلالته ـ ياصاحب النبالة ـ يهدى اليك حصانا ، «ويخلع » عليك معطفا ! » ..وكان على سرج الحصان معطف من جلد الخروف !

واضاف وهو يتهته ، قائلا : « ثم انه أهدى اليك كيسا من المال ، الا اننى أضعته فى أثناء الطريق ، فأرجو أن تصفح عنى ! » . فرماه سافيليتش بنظرة ارتياب ، ودمدم قائلا : « اضعتها فى أثناء الطريق ؟.. فما الذى يرن اذن فى صدرك ؟ .. الا تستحى ؟ » . فأجاب الآخر معترضا دون أن ينتابه اى اضطراب : « مايرن فى صدرى ؟ .. عفا الله عنك أيها الشيخ !.. ان ما تسمعه هو رنين اللجام لا رنين كيس ! »

فقطعت المناقشة بقولى : « حسنا .. اشكر عنى من ارسلك . اما الكيس الضائع ، فحاول أن تجده ، وليكن هدية منى اليك ! » . فقال وهو يدور بحصانه : « الف شكر ياصاحب النبالة . سأدعو لك بالخير على الدوام » .

وما ان قال هذا الكلام ، حتى قفل يعدو خببا ، وقد وضع احدى يديه على صدره . ثم اختفى فى طرفة عين . فارتديت المعطف ، وامتطيت صهوة جوادى ، واضعا سافيليتش ورائى . وقال الرجل العجوز : « ارايت ياسيدى ؟ .. ان تقديم قائمة الحساب لهذا الحقير قد آتى اكله !.. لقد أنبه ضميره وندم على صنعه!.. ورغم ان هذا الحصان الباشكيرى ذا القوائم الطويلة ، وهذا المعطف المصنوع من جلد الخروف ، لاتساوى قيمتهما نصف قيمة ما سرقه منا اللصوص ، وما طاب لك ان تهديه اليه بارادتك ، فقد يفيداننا . والحاذق من يحصل من دينه الميت اى مبلغ يقدر على تحصيله ! »

(١٠) حصار اورنبورج

« بعد ان احتل الجبال والوديان ،
« القى نظرة من عل ،
« كالنسر ، على المدينة ..
« وامر باقامة خيمة وراء المعسكر ،
« تخبأ فيها المدافع ، لتقاد ليلا
« الى امام المدينة » —
كيراسكوف

• **فلما** وصلنا الى اورنبورج ، رأينا جمهورا من المحكومين بالاشغال الشاقة — الذين حلقت رؤوسهم وشوهت وجوههم بملاقط الجلادين — يعملون فى تحصين المدينة ، تحت رقابة عدد من جنود الموقع . فكان بعضهم ينقل — على عربات صغيرة — «الصوالة» التى تملأ الوادى ، وبعضهم الآخر يحفر الارض .. وكان عدد من البنائين يأتى الى الاسوار بالآجر ، يقوى متاريس المدينة .

واستوقفنا الحراس على الأبواب ، وطلبوا الينا جوازات السفر . فلما علم الرقيب أننى آت من (بيلوجورسكايا) ، مضى بى الى بيت القائد رأسا . «ووجدت القائد فى حديقته ، يفحص أشجار التفاح التى عرتها أيام الخريف ، ويغطيها بالقش فى كثير من العناية ، مستعينا ببستانى عجوز كان وجهه يشرق بالطمأنينة والعافية والبساطة . وظهرت عليه امارات السرور لرؤيتى مرة اخرى ، **واخذ يسألنى عن الأحداث الفظيعة التى شهدتها ، فقصصت عليه كل شىء تفصيلا** . فاصغى الى كلامى فى اهتمام كبير ، مع استمراره على قطع الأغصان اليابسة . ثم قال حين انهيت قصتى الحزينة :

— مسكين ميرونوف ، اننى أرثى له ! .. كان دائبا ممتازا

.. وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة . ما ابراها فى تبخ الكماة ! .. وماذا هل بماشا ، ابنة الدابت الرئيس ؟ (١)
فاجبت بانهــا بقيت فى الحصن ، فى كنف امرأة القس .
فقال «آى ، آى !.. لايمكن الائتمان الى هؤلاء السوص ! .. ما مسير هذه البنت المسكينة ؟ » (٢)
فاجبت بأن بيلوجورسكايا ليست بعيدة ، وأن ســعادته قدلايتخلف عن ارسال فرقةاليها لتحرير السكان المساكين.
فهز القائد اللواء رأسه ، وبان على وجهه أنه غير مطمئن . ثم قال : « سنرى ، سنرى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والآن ادءوك الى تناول الشاى. سيجتمع اندى مجلس الهرب بأد كليل ، وفى امكانك أن تؤتينا اندئذ مألومات دكيكة أن هــذا الهكير بوجاتشيف وأن جيشــه .. والآن يمكنك أن تذهب لترتاه كليلا . » (٣)

ومضيت الى المسكن الذى اعدوه لى ، فرأيت سافيليتش بسبيل تهيئة اقامتنا فيه . وكنت فى حالة فظيعة من القلق وفراغ الصبر . وفى وسع القارىء أن يتخيل بسهولة اننى لم أتخلف عن حضور المجلس الذى كان مقدرا أن يكون له فى مصيرى تأثير كبير . فوصلت الى بيت اللواء فى الســاعة المحددة. فوجدت هنالك أحد موظفى المدينة ، ومدير الجمرك،

---

(١) « كان ضابطا ممتازا ، وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتــازة . ما ابرعها فى طبخ الكماة !.. وماذا حل بماشا ، ابنة الضابط الرئيس ؟ »

(٢) « لا يمكن الاعتماد على هؤلاء اللصوص !.. ما مصير هذه البنت المسكينة ؟ »

(٣) « سنرى ، سنرى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والان ادعوك الى تناول الشاى . سيجتمع عندى مجلس الحرب بعد قليل ، وفى امكانك أن تعطينا عندئذ معلومات دقيقة عن هذا الحقير بوخاتشيف وعن جيشه .. والان يمكنك ان تذهب لترتاح قليلا » .

ووجدت عجوزا قصيرا بطينا ، يرتدى ثوبا ملونا من «البروكار» اللماع ، أخذ يسألنى عن مصير ايفان كوزمتش ويسميه « اشبينه » . وقاطع قصتى عدة مرات بأسئلة وملاحظات عميقة ، ان لم تدل على أنه رجل مثقف فى علم الحرب ، فهى تدل على انه ذو فكر ثاقب وذكاء مفطور . وفى أثناء ذلك ، توافد سائر المدعوين . فلما أخذ الجميع اما كنهم ، وقدم الى كل منهم قدح من الشاى ، أخذ القائد يعرض الموقف فى وضوح وتفصيل . وقال أخيرا :

– **والآن أيها السادة ، يجب أن نقرر : هل نصطنع مع العصاة أسلوب الهجوم ام أسلوب الدفاع ؟** .. أما الهجوم فانه يتيح لنا ان نأمل فى القضاء على العدو قضاء اسرع ، وأما الدفاع فهو أكثر ضمانا واقل خطرا .. فعلينا اذن بالاقتراع ، وفقا للترتيب القانونى ، اى ابتداء بالضباط الصغار .. ياحضرة حامل العلم ، تفضل بابداء رأيك !

فنهضت.. وبعد أن وصفت بوجاتشيف وعصابته بكلمات موجزة ، اكدت أن هذا المحتال لايستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم قطعات نظامية .. **ولاحظت على المستمعين انهم لايوافقون على رأيى هذا البتة. وأدركت أن الموظفين لايرون فى شخصى الا شابا جريئا متهورا** . وارتفعت فى الحفل أصوات دمدمة ، حتى لقد سمعت احدهم يقول بصوت منخفض : « هذا طفل غر » . والتفت القائد اللواء نحوى مبتسما يقول : « ياحضرة الضابط حامل العلم.. فى مجالس الحرب ترتفع الأصوات الأولى دائما فى تأييد الأعمال الهجومية . هذا أمر طبيعى ! .. والآن فلنستمر فى جمع الآراء . مارأيك ياحضرة المستشار ؟ »

فسارع العجوز القصير – الذى يرتدى ثوبا من البروكار

– وأفرغ فى جوفه البقية الباقية من قدحه الثالث من الشاى الممزوج بكمية كبيرة من الكحول ؛ ثم قال : «أعتقد ياصاحب السعادة ، أن الأمر ليس امر هجوم ولا دفاع » . فرد عليه اللواء ، دهشا : « ولكن ياحضرة المستشار ، ان الحرب لاتعرف غير اسلوبين : اسلوب الدفاع واسلوب الهجوم » .

– جربوا ، ياصاحب السعادة ، أسلوب ((الافساد)) !

– بخ بخ ! .. انه لرای يفيض بالحكمة ! .. ان للحرب اسلوبا ثالثا هو «أسلوب الافساد» .. سننتفع بنصائحك ، وسنعلن أن من يأتينا براس هذا السافل ، يتناول مكافأة قدرها سبعون روبلا ، بل مائة روبل . نأخذها من المخصصات السرية .. !

فقاطعه مدير الجمرك قائلا : « اقبل ان يسمولى شاه كرخيزية لامستشارا ، اذا لم يسلمنا هؤلاء المجرمون زعيمهم مكتوف اليدين والرجلين !» . فأجاب اللواء قائلا : « سنفكر فى هذا الامر ، وسنتحدث فيه مرة أخرى . وانما ينبغى لنا – على اية حال – أن نتخذ بعض التدابير العسكرية . ايها السادة ، هلا ادليتم بآرائكم وفقا للترتيب التصاعدى ؟ »

***

وجاءت آراؤهم جميعا تعارض رايى ، وذكروا ان القطعات ليست مأمونة الجانب ، وان الظروف متقلبة ، وان الحذر واجب .. الى آخر ما هنالك . **لقد كانوا يعتقدون جميعا ان بقاءنا فى عصمة المدافع – وراء الاسوار الصخرية العالية – اسلم عاقبة من الخروج الى الفلاة .** واخيرا ، هز اللواء رماد فليوته ، بعد أن سمع جميع الآراء ، والقى الخطاب التالى : « أيها السادة ، ارانى مضطرا الى التصريح بأننى شخصيا اوافق على راى حامل العلم موافقة تامة ، لان هذا الراى

يستند الى جميع قواعد الخطط الحربية الصحيحة التى تؤثر الاعمال الهجومية على الاعمال الدفاعية دائما ! »

وهنا توقف عن الكلام ، وأخذ يحشو غليونه بالتبغ . وسررت بكلامه هذا الذى تملق كبريائى، فألقيت نظرة شامخة على الموظفين .. وكانوا يتهامسون وقد بدا عليهم القلق والامتعاض.. واردف اللواء يقول ، وهو يطلق زفرة عميقة ، ويرسل الى السقف سحابة كثيفة من الدخان : « الا اننى - ايها السادة - لا اجرؤ على ان آخذ على عاتقى مثل هذه التبعة . فالأمر يتعلق بسلامة هذا الاقليم ، وقد عهدت الينا بها مولاتنا الامبراطورة ، امنا الرؤوم ! .. ولهذا السبب ، انضم الى الاغلبية التى ارتأت ان الخطة الأسلم عاقبة ، والأقل خطرا ، هى ان ننتظر العدو فى داخل المدينة ، وان نصد الهجوم بالمدفعية ، وبالخروج اليه - عندئذ - اذا امكن ذلك ! »

ورأيت الموظفين يرشقوننى بنظرة ساخرة بدورهم .. وانتهى الاجتماع .. واستأت من ضعف هذا المحارب القديم، الذى قرر - على خلاف آرائه الشخصية - ان ينقاد لراى اناس جهلة تعوزهم الخبرة .

وما أن انقضت على هذا الاجتماع بضعة ايام ، حتى علمنا أن بوجاتشيف يقترب من (اورنبورج) وفقا لوعده .. ورأيت جيش العصاة من أعلى اسوار المدينة . ولاحظت أن عددهم قد زاد عشرة أضعاف ما كانوا يوم الهجوم الاخير الذى شهدته ، وانهم يملكون مدافع جديدة ، مما استولى عليه بوجاتشيف من الحصون الصغيرة التى وقعت فى قبضته .. وفكرت فى قرار المجلس العسكرى ، فقدرت أننا سنظل سجناء وراء اسوار (اورنبورج) مدة طويلة ، فكدت أبكى حنقا .

ولن أصف حصار اورنبورج ، فهذا من شأن التاريخ ، ولا يدخل فى قصة أسرة . وحسبى ان اقول انه كان شؤما على السكان ، بسبب قلة تبصر السلطات . فقد عانى منه السكان مر الجوع وسائر أنواع الكوارث .. واصبحت الحياة فى أورنبورج بشعة كريهة ؟.. كان السكان يتذمرون من غلاء المعيشة ، وكان غلاء فظيعا والحق يقال ، وسرعان ما اعتادوا على القنابل – التى كانت تسقط أحيانا فى باحات بيوتهم – حتى ان الهجمات التى كان بوجاتشيف يشنها أصبحت لا تلفت انتباه الناس . وكنت أختنق ضجرا ، والوقت يجرى بطيئا ثقيلا .. لم أكن أتلقى أية رسائل من بيلوجورسكايا ، فلقد كانت الطرق كلها مقطوعة .

وأصبح انفصالى عن ماريا ايفانوفنا لا يطاق .. كان جهلى كل شىء عن مصيرها يعذبنى اكثر من اى شىء آخر .

وكانت تسليتى الوحيدة هى النزهة على ظهر الحصان ، فقد كنت املك – بفضل بوجاتشيف – جوادا ممتازا ، كنت اقاسمه طعامى الزهيد ، واخرج به من المدينة فى كل يوم .. اتبادل مع فرسان العدو طلقة نار . وكان تبادل الطلقات هذا ينتهى – عادة – بنصر العصاة الذين لم يكونوا يشكون جوعا ولا عطشا ، ولا ضعفا فيما يمتطون من دواب !

كانت فرقة الفرسان الهزيلة – التى نملكها – لا تستطيع ان تصمد لهم ، ولا ان تتغلب عليهم . وكانت مدفعيتنا الجائعة تخرج بدورها فى بعض الاحيان ، الا ان عمق طبقة الثلج المتراكم على الارض لم تكن تتيح لها التغلب على فرسان العدو المبعثرين . فكانت المدفعية تلقى قذائفها عبثا من أعلى الاسوار ، حتى اذا خرجت الى ميدان القتال ، غاصت فى الثلج ، ولم تستطع التقدم بسبب ضعف الخيل التي تجرها .

تلك كانت خطتنا الحربية !.. وذلك كان ما اسماه موظفو (اورنبورج) بالحكمة والحذر والتبصر !

وفي ذات يوم ، بينما نحن نشتت ونصد قطعة كبيرة من قطاعات العدو ، بصرت بقوقازى بقى وراء رفاقه ، فهممت بأن أضربه بسيفي التركى ، لولا انه خلع قبعته فجأة ، وهتف بى : « مرحبا بترو اندريفتش .. كيف حالك ؟» .. فعرفت فيه الوكيل ، وسررت برؤيته . وقلت : « مرحبا بك يا ماكسيمتش ، هل تركت بيلوجورسكايا منذ مدة طويلة ؟»

ـ كلا ياعزيزى بترو اندريفتش .. كنت فيها أمس ، وانا أحمل رسالة اليك !

فصحت وقد احمر وجهى من فرط الانفعال : « اين هى ؟ »

قال وهو يضع يده على صدره : « **هى معى ، وقد وعدت بالاشا أن أوصلها اليك بأية وسيلة !** » . قال هذا ومد الى ورقة مطوية ، ثم مضى يعدو .

وفضضت الرسالة ، فقرأت فيها الاسطر التالية وانا ارتجف :

« لقد شاء الله ان يحرمنى ابى وامى دفعة واحدة . ولم يبق لى على الارض أهل ولا من يحمينى . وانما أكتب اليك الآن ، لعلمى بأنك كنت تبدى اهتماما بى ، ولأنك اهل لمعونة جميع الناس . أرجو من الله أن تصل اليك هذه الرسالة بوسيلة من الوسائل . وقد وعد ماكسيمتش بأن يسلمك اياها . لقد سمعته « بالاشا » يقول انه كثيرا مايراك حين تخرج من الاسوار ، وانك لا تحافظ على نفسك ، **فكأنك لا تفكر فى أولئك الذين يدعون الله ليل نهار ان يحفظك ويصونك ، والدموع تملأ مآقيهم .**

« لقد ظللت مريضية خلال مدة طويلة . وحين أبللت من مرضى ، جاء اليكسى ايفانتش ـ الذى حل محـل المرحوم والدى ـ فأجبر الأب جراسيم على أن يسلمنى اليه ، مهددا اياه ببوجاتشيف . فأنا أسكن الآن منزلنا ، الا أننى مراقبة، وألكسى ايفانتش يحملنى على الزواج به ، ويدعى انه انقـذ حياتى بسكوته على كذب آكولينا بامفيلوفنـا ، التى زعمت للمجرمين أننى ابنة أخيها . **ولـكن الموت أسـهل على من الزواج برجل مثل اليكسى ايفانتش** .. انه يعاملنى معـاملة قاسيه ، ويهددنى بأنه سيقودنى الى معسكر اللص ، لألقى هنالك المصير الذى لقيته ليزافتا خارلوف ، ان لم أرجع عن قرارى وأقبله زوجا . وقد طلبت اليه أن يدعنى أفكر فى الامر ، فقبل ان ينتظر ثلاثة أيام أخرى ، حتى اذا لم أرتضه بعلا فى نهاية هذه الأيام الثلاثة ، لم يعف عنى البتة .

« يا عزيزى بترو اندريفتش .. انك الشخص الوحيـد الذى يمكن ان يحمينى ، وأن يعمل شيئا فى سبيل بائسـة مسكينة .. اطلب الى اللواء ، والى جميع القادة، ان يرسلوا الينا نجدة بأقصى سرعة ممكنة ، وتعال أنت اذا أمكن .

يتيمتك المخلصة . ماريا ايفانوف »

كدت أجن لدى قراءة هذه الرسالة . وعدت الى المدينة لا اشفق على حصانى المسكين من وخزات المهاميز . وجهدت اثناء الطريق أن أهتدى الى وسيله انقذ بها هذه الفتـاة الشقية ، ولكن دون جدوى . فلمـا وصلت الى المدينـة ، اتجهت الى بيت اللواء رأسا ، ومرقت الى غرفته كالسهم :

***

كان اللواء يسير فى طول الغرفة وعرضها، وهو يدخن غليونه، فلما رآنى ادخل ، توقف عن السير .. ولعله دهش لما رأى

فى وجهى من شرود ، وسألنى - على كل حال - فى غير قليل من اللطف والرفق ، عما أتى بى اليه على هذا الوجه من السرعة ..

فقلت : « اننى اتجه اليك ، يا صاحب السعادة ، كما يتجه ابن الى أبيه . أتوسل اليك أن لا تمنع عنى حمايتك .. ان المسألة تتعلق بسعادة حياتى كلها ! »

فقال العجوز مضطربا : « ماهنالك يا عزيزى ؟.. ماذا أستطيع ان أعمل فى سبيلك ؟.. قل ! »

- تستطيع يا صاحب السعادة أن تأمر لى بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا ، امضى على رأسهم لأطهر حصن (بيلوجورسكايا) !

فظل اللواء يتفرس فى ، ولعله اعتقد اننى فقدت صوابى - وهو فى الحق لم يخطىء كثيرا - ثم قال أخيرا : « ما هذا الكلام ؟.. تطهر حصن بيلوجورسكايا ؟ » . فأجبت فى حماسة : «أتعهد لك بالنصر ، دعنى أمضى!..» فقال وهو يهز رأسه : « كلا أيها الشاب .. ان العدو يستطيع - فى مسافة بعيدة كهذه - ان يقطع جميع طرق المواصلات ، وأن يحتل النقطة «الستراتيجية» الأساسية ، فيصل الى نصر كامل. وما دامت المواصلات مقطوعة .. »

وهنا عرانى الخوف ، اذ رأيته يعالج أمورا ستراتيجية ، فقاطعته قائلا : « ان ابنة الضابط الرئيس ميرونوف قد بعثت الى برسالة تطلب فيها أن أهب الى نجدتها ، فان شفابرين يحملها على الزواج به ! »

- صحيح ؟.. آه من شفابرين هذا !.. انه عاهر كبير . ان وقع يوما فى قبضتى ، فسأقضى عليه بالموت ، ثم أقتله

رميا بالرصاص فوق أسوار الحصن .. **ولكن الى أن يحين الحين فلنتجمل بالصبر !**

فصحت وقد خرجت عن طورى : « الصبر ؟.. ولكنه يكون ـ أثناء ذلك ـ قد تزوج ماريا ايفانوفنا ! » . فاعترض اللواء يقول : « ليس هذا بالفاجعة العظمى .. **ان زواجها بشفابرين ـ الى أن يحين الحين ـ خير لها وأبقى ، لأنه يحميها .. حتى اذا قتلناه لم تعدم من يخطبها !** ان النساء الجميلات لا يبقين عوانس مدة طويلة .. والوقوع على زوج اسهل على الارملة منه على الفتاة العذراء ! »

فقلت وانا ارغى وأزبد حنقا : « اننى أفضل ان اموت على ان اتركها لشفابرين ! » . فقال الرجل العجوز : « ها ! الآن فهمت .. **أنت اذن تحب ماريا ايفانوفنا ؟ هذا شيء آخر . مسكين ايها الشاب !..** ولكننى لا استطيع أن آمر لك بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا !.. هذا امر خطر ، لا أستطيع ان احمل تبعته » .. فخفضت رأسى ، وقد أخذ منى اليأس مأخذه ، وسيطر عى كرب شديد . وفجأة خطرت على بالى فكرة .. وسيرى القارىء ما هى هذه الفكرة ، حين يقرأ الفصل التالى ، كما أن الروائيون يقولون فى الزمان القديم .

١١ - عند العصاة

« كان الاسد - فى تلك اللحظة -
« قد شبع ، مع انه وحش ضار ..
« وساله بصوت رقيق ناعم :
« ماذا أتيت تصنع فى عرينى ؟ »

آ . سوماروكوف

• تركت المواء وهرعت الى منزلى ، فاستقبلنى سافيليتش بديباجته المعتادة : « أية لذة تجد فى مقارعة هؤلاء اللصوص ؟ .. ليس هذا شان سيد مثلك ! .. ان الكارثة تأتى على حين غفلة ! ستموت بلا جاه ولا مجد ! .. أانت تحارب الاتراك أو السويديين ؟ .. انه لأثم ان يدور على لسانى ذكر هؤلاء الذين نمضى الى قتالهم ! » . فقاطعت خطابه بسؤاله عن قدر المال الذى أملك ، فأجاب وقد ظهرت على وجهه علائم الارتياح : « تملك قدرا لا بأس به .. صحيح أن اللصوص لم يدعوا ركنا دون أن ينبشوه ، الا اننى استطعت أن أخفى قدرا من المال غير يسير ! »

قال ذلك وأخرج من جيبه كيسا مملوءا بالنقود .. فقلت : **« حسنا يا سافيليتش .. اعطنى نصف هذا المال ، وخذ الباقى ، فاننى ذاهب الى بيلوجورسكايا ! »**

قال العجوز الطيب بصوت مرتجف : « ألا تخاف الله يابنى ؟ .. الى اين تريد أن تمضى فى هذه الظروف التعيسة ، واللصوص يحرسون جميع الطرق ؟ .. اذا كان لا يهمك أمر نفسك ، فارفق بوالديك على الأقل ! .. الى أين أنت ذاهب ؟ ولماذا ؟ .. انتظر قليلا ، فسيأتى الجيش عما قليل ، فيقبض على جميع المجرمين ، وتستطيع - يومئذ - أن تمضى الى حيث تشاء ! »

بيد أن قرارى كان قاطعا لا راد له . فقلت : « ان الوقت

أضيق من أن يتسع للأخذ والرد . يجب أن اسافر ، فلا أستطيع البقاء هنا .. لا تحزن يا سافيلينتش ، فان الله رحيم ، وقد نلتقي مرة أخرى ... لا تضن على نفسك بشيء ، ولا تقتصد في انفاق المال !.. اشتر لنفسك ما أنت في حاجة اليه ، ولو اضطررت ان تدفع الثمن أضعافا مضاعفة . انني أهب لك هذا المال . واذا لم أعد خلال ثلاثة أيام .. » .

فقاطعني سافيليتش قائلا :

— ماذا تقول يا سيدي ؟.. لن أدعك تسافر وحدك !.. لا تطلب الي هذا ، ولو في المنام . ان كنت قد أزمعت سفرا ، فأنا رفيقك ، ولو اضطررت أن أمضي سيرا على الاقدام . لن أتركك !.. أبقى وراء سور من صخر ، وأنت في الفلاة؟.. كلا يا سيدي ، انني لم أجن بعد . افعل ما شئت يا سيدي ، فلن أتخلف عنك !

وكنت اعرف بالتجربة ، ان المناقشة مع سافيليتش ضرب من العبث . فأذنت له ان يمضي يهيىء حاجات السفر . وما هي الا نصف ساعة ، حتى كنت على صهوة جوادي ، وحتى كان سافيليتش يمتطي كديشا صغيرا هزيلا أعرج ، كان أحد سكان المدينة قد تنازل عنه ، لأنه أصبح لا يملك ما يقيم به أوده .

ووصلنا الى أبواب المدينة ، فتركنا الخفراء نمر . وغادرنا (اورنبورج) .. وكان الظلام يهبط قليلا ، والسبيل الى (بيلوجورسكايا) يمر ببلدة (بردسكايا) ، عرين بوجاتشيف .. وقد امحت معالم الطريق تحت الثلج ، الا أن الارض كلها كانت تحمل آثار حوافر الخيل ، التي كانت تتجدد في كل يوم . وكنت أعدو خببا ، وسافيليتش لا يستطيع أن يتبعني — من بعيد — الا في كثير من العناء ، ولا ينقطع عن

الهتاف بى : « لا تسرع كل هـذا الاسراع يا مولاى !.. أناشدك المسيح ، لا تسرع كل هذا الاسراع !.. ان كديشى الهالك لا يستطيع أن يساير عملاقك ذا القوائم الطويلة .. ثم علام هذه السرعة ؟ أنحن ذاهبان الى عرس ؟.. اننا معرضان – فى كل لحظة – لضربة فاس.. بترو اندريفتش ، يابنى .. بترو اندريفتش !.. رباه ! ان مولاى الصغير يسعى الى حتفه ! »

وسرعان ما تراءت لنا أنوار (بردسكايا) ، فاقتربنا من الوديان التى تحمى البلدة حماية طبيعية . وكان سافيليتش لا يزال يتبعنى مرددا عويله ونحيبه .. وكنت آمل أن أدور حول البلدة ، دون ان يلحق بنا أذى ، ولكننى بصرت فجأة – على ضوء الشفق – بخمسة من « الموجيك » مسلحين بدبابيس(١) .. وكان هؤلاء طليعة الحرس على عرين بوجاتشيف. **فلما نادونا – وكنت لا أعرف كلمة السر – حاولت أن اجتازهم صامتا، الا انهم سرعان ما احاطوا بى والتفوا حولى.** وأمسك احدهم بلجام حصانى ، فسللت سيفى ، وهويت به على رأسه ، فترنح وترك لجام حصانى ، برغم أن قبعته قد صانت رأسه من الأذى . واضطرب رفاقه فتراجعوا ، فانتهزت هذه الفرصة وهمزت حصانى ، وعدوت مسرعا . وكان يمكن ان يحمينى ظلام الليل الهابط من كل اذى ، الا اننى التفت ورائى : فلم أر سافيليتش .. لم يستطع العجوز المسكين – وهو على ظهر كديشه الاعرج – أن يفلت من أيدى اللصوص .. ماالعمل؟ انتظرت بضع لحظات ، حتى اذا أيقنت انهم قد قبضوا عليه ، قفلت راجعا ، أسرع الى نجدته .

فلما اقتربت من الوادى ، سمعت لجة من بعيد ، وسمعت

---

(١) الدبوس من ادوات الحرب كانت تشبه الهراوة بيد طويلة ..

جعجعة وصوت سافيليتش ، فسارعت خطو حصانى . وما هى الا برهة ، حتى رأيتنى بين رجال الحرس من «الموجيك»، الذين أوقفونى منذ لحظات .. لقد أنزلوا سافيليتش عن كديشه ، وهموا أن يشدوا وثاقه . **فلما رأونى، اندفعوا الى وهم يصرخون ، وأنزلونى عن حصانى فى طرفة عين .** وصرح لى أحدهم — وهو رئيسهم فيما يظهر — انه سيقودنا الى القيصر ، ثم أضاف الى ذلك قوله : « ومولانا هو الذى سيقرر هل تشنقان على الفور ، أو تمهلان حتى يلوح **الفجر ! »**

وكما فعل سافيليتش ، لم اظهر اية مقاومة . وقادونا منتصرين مظفرين .

***

اجتزنا الوادى ، ودخلنا البلدة .. كانت البيوت كلها مضاءة ، وكنت تسمع صخبا وجلبة فى كل مكان . ولقيت فى الطريق طائفة كبيرة من الناس ، ولكن لم يبصر بنا أحد من فرط الظلام ، ولم يعرف أحد اننى ضابط من (اورنبورج) . وقادونا رأسا الى عزبة (اى : دار) تقوم عندما ملتقى عدد من الشوارع، ويحرس مدخلها عددمن براميل الخمر ومدفعان.

وقال أحد الموجيك : « هو ذا القصر .. سنبلغ القيصر أمركما » . ثم دخل .. ونظرت الى سافيليتش ، فاذا العجوز المسكين يصلب ويصلى بصوت خافت . وانتظرنا مدة طويلة ، عاد الموجيك بعدها يقول : **((أدخل !.. لقد أمر مولانا بادخال الضابط)) .**

ودخلت العزبة ، أو القصر كما يسميه الفلاحون .. كان يضىء الغرفة قنديلان ، وقد فرشت جدرانها بورق ذهبى اللون . وكان كل ما عدا ذلك عاديا مما يوجد فى أية عزبة ؛

كالمقاعد ، والمنضدة ، والمغسلة المشدودة بحبل ، والمنشفة المعلقة بمسمار ، والمدفأة المزين سطحها بآنية من الآجر . وكان بوجاتشيف جالسا فى وقار ، تحت الأيقونات ، وقد ارتدى قفطانا احمر ، وكسى راسه بقبعة عالية ، ووضع يده على خصره . وكان عدد من كبار انصاره يحف به ، مصطنعا نوعا من الذل الكاذب ، والخضوع الزائف .. كان واضحا أن وصول ضابط من (اورنبورج) قد اثار فضول العصاة على نحو قوى عنيف، وان بوجاتشيف كان يستعد لاستقبالى فى وقار . **فلما دخلت ، عرفنى على الفور ، فتبدد ما قد اصطنعه من عبوس.** وقال : « أهذا انت ياصاحب النبالة؟.. كيف حالك ، وما الذى أتى بك الى هنا ؟ »

ـ كنت ماضيا لبعض شؤونى ، فأوقفنى رجالك .

ـ وما هى هذه الشئون ؟

ولم أعرف بماذا أجيب .. وظن بوجاتشيف اننى احرص على أن لا أبوج بشىء أمام رجاله ، فأمرهم بالخروج ، فأطاعوا ما عدا اثنين ظلا فى مكانيهما لم يبرحاه . وقال بوجاتشيف : « تحدث أمامهما ، فاننى لا أخفى عنهما شيئا ! »

ألقيت على هذين الرجلين ـ اللذين يؤثرهما بوجاتشيف ـ نظرة شذراء . كان أحدهما عجوزا قميئا ، مقوس الظهر، ابيض اللحية ، ليس فيه ما يلفت النظر غير شريط ازرق فوق معطف رمادى . الا اننى لن انسى رفيقه ما حييت ؛ رجل فارع القامة ، ضخم ، عريض المنكبين ، يبدو فى الخامسة والاربعين من عمره ، ذو لحية حمراء كثة ، وانف فير ذى منخرين ، وقد انتشرت فى جبينه وعلى خديه بقع حمراء ـ تضفى علي وجهه العريض المجدر معنى لا يوصف ـ

وقد ارتدى قميصا أحمر ، وجبة كرخيزية ، وسروالا قوقازيا . وعرفت — فيما بعد — ان الأول عريف فار يدعى « بيلوبوردوف » ، وأن الثاني — وهو يدعى « آفاناسى سوكولوف » ويلقب باسم « خلوبوشا » — مجرم عريق فى الأجرام ، فر من مناجم سيبريا ثلاث مرات !.. ولقد أسلمتنى رؤية هؤلاء الناس — الذين وقعت بينهم على غير ارادة منى — الى ذهول عميق ، رغم ما كنت أعانيه من قلق يخنق صدرى . **وسرعان ماردنى بوجاتشيف الى الواقع ، اذ خاطبنى بقوله : « تكلم ! ما هو الأمر الذى اخرجك من اورنبورج ! »**

خطرت على بالى فكرة غريبة .. قلت — فى نفسى — ان العناية الالهية اذ القتنى مرة أخرى بين يدى بوجاتشيف كانت تتيح لى ان أنفذ الخطة التى عزمت على تنفيذها . فقررت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة ، فاذا أنا أجيب على سؤاله — قبل ان يتسع وقتى للتفكير فيما انا مقدم عليه — قائلا . « كنت ماضيا الى بيلوجورسكايا لنجدة يتيمة يسيئون معاملتها هنالك ! » . فقال الغاضب والشرر يتطاير من عينيه : « من ذا الذى يجرؤ من رجالى ان يسىء معاملة يتيمة ؟ .. **قل لى من هو هذا المجرم ، حتى أنزل فيه عقابى الشديد ، ولو كان فى حكمة الملك سليمان الحكيم ! »**

— انه شفابرين .. لقد حجز فى بيته تلك الفتاة التى رأيتها مريضة فى منزل امراة القس ، وهو يريد أن يكرهها على الزواج به !

قال بوجاتشيف بصوت مدو : « سيرى شفابرين مغبة فعلته .. سيرى كيف أعاقب الذين يركبون هواهم ، ويسيئون معاملة الشعب !.. لسوف يشنق » . فقال خلوبوشا بصوت متهدج : « اسمح لى أن أقول انك تعجلت

فى تعيين شفابرين آمرا للموقع ، وانك تتعجل الآن فى الحكم عليه بالشنق . لقد استثرت سخط القوزاقيين حين أقمت عليهم رئيسا من النبلاء ، فلا تستثر سخط النبلاء بقتل أحدهم لوشاية ترامت اليك ! » . فقال العجوز ذو الشريط الأزرق :

— ليس علينا أن نشفق عليهم ، ولا أن نعفو عنهم .. وليس اعدام شفابرين بالكارثة العظمى على كل حال . الا أن من المفيد أيضا أن نسائل حضرة الضابط — فى لطف ولباقة — عما أتى به الى هنا . فان كان لا يعترف بك ملكا ، فليس له أن يلتمس منك احقاق الحق . وان كان يعترف بك ملكا فماذا كان يعمل الى جانب اعدائك حتى الآن فى اورنبورج ؟.. هلا أمرت بان نمضى به الى العنبر ندفئه قليلا ؟.. يخيل الى أن قادة اورنبورج هم الذين أرسلوه الى هنا !

كان منطق هذا المجرم العجوز مفحما . وسرت فى جسمى كله رعدة قوية ، وأنا أفكر فى هؤلاء الناس الذين وقعت فى قبضتهم . ولاحظ بوجاتشيف اضطرابى فقال وهو يغمز بعينه : « يخيل الى أن المارشال على حق ، فما رأيك ؟ »

ردت الى هذه اللهجة الساخرة شجاعتى ، فأجبت فى هدوء بأننى فى قبضة يده ، وأنه يستطيع أن يعاملنى المعاملة التى تحلو له . فأجاب بوجاتشيف يقول : « حسنا .. والآن قل لى : فى أية حال تعيش المدينة ؟ »

— لا يعوزها شىء بحمد الله .

— لا يعوزها شىء ؟.. ان الناس يموتون جوعا !

كان كلام الغاصب صحيحا . الا أننى التزمت ما قطعت على نفسى من عهد ، فأخذت أؤكد له أن تلك اشاعة كاذبة ، وان اورنبورج فى بحبوحة من العيش . فقال العجوز — معترضا — يخاطب بوجاتشيف : « ها أنت ترى أنه يكذب

عليك وجها لوجه . لقد انعقد اجماع الفارين على أن المجاعة تهيمن على المدينة ، وأن الامراض متفشية فيها ، وان الناس يأكلون الجثث المتفسخة، وأن الذين يجدون مما ياكلونه من هذه الجيف المتفسخة يعدون أنفسهم سعداء .. الا أن سعادته يؤكد ان كل شيء على ما يرام. اذا أردت أن تعدم شفابرين ، فاعدم معه هذا الفتى على مشنقة واحدة كما يشمت أحد منهما فى الآخر !))

وكأن أقوال هذا العجوز اللعين قد أثرت فى نفس بوجاتشيف . ولكن خلوبوشا انبرى يعارض زميله ، لحسن الحظ ، فقال : ((اسمع يا ناومتش !.. انك لا تفكر الا فى الشنق والقتل . اهذه شجاعة ؟ ان المرء — حين ينظر اليك — ليستغرب ان تكون حيا الى الآن . انك من القبر قاب قوسين أو أدنى ، ثم لا يمنعك هذا من تقتيل الناس!.. اما يكفيك ما اهرقت حتى الآن من دماء ؟)) . فاعترض بيلوبورودوف يقول : ((من سمعك تقول هذا الكلام ، حسبك قديسا هبط من السماء !.. من اين لك هذه الشفقة ؟))

— لا شك أننى ارتكبت الخطايا كذلك (وهنا شد قبضة يده الناتئة عظامها ، وحسر كمه فكشف عن ذراعه ذات الشعر الكثيف) .. ان هذه اليد قد أجرمت اذ سفكت دم كثير من المسيحيين ، الا أننى فتكت باعداء لا بضيوف .. فتكت بهم مقاتلا فى ساحات الوغى ، وفى الغابات المظلمة ، لا جالسا فى بيتى وراء المدفأة .. قتلتهم بفؤوس ودبابيس لا بوشايات حمقاء !

فأشاح العجوز وجهه ، ودمدم بضع كلمات مثل : ((حشر انفه)) . وهنا صرخ خلوبوشا قائلا : ((ماذا تجمجم ايها العجوز الهرم ؟.. سأريك كيف يكون حشر الأنف !.. انتظر قليلا ، فسيحين حينك ، وسيرسل اليك الله من يقطع

أوصالك !.. وبانتظار ذلك ، حذار ان انتف لحيتك ! »

هنا انبرى بوجاتشيف يقول فى وقار : « أيها القائدان ، كفاكما شجارا . لن تكون مصيبة كبرى أن تترنح كلاب أورنبورج كلها على مشنقة واحدة ، **وانما المصيبة الكبرى أن تتشاجر كلابنا نحن ، وأن يمزق بعضها بعضا . هيا تصالحا** »

ولم يقل خلوبوشا وبيلوبورودوف شيئا ، وألقى كل منهما على الآخر نظرة قاتمة . وأدركت أن على أن أغير مجرى الحديث ، فقد ينتهى بما لا يسعدنى . فالتفت نحو بوجاتشيف ، وقلت له بلهجة مرحة : « آه !.. نسيت أن أشكر لك هديتك : الحصان والمعطف . لولاك لما وصلت الى المدينة ، ولقضيت فى الطريق من شدة البرد » .

ونجحت خطتى ، وظهرت على بوجاتشيف أمائر المرح والفرح وقال وهو يغمز بعينه : « من زرع حصد .. ولكن قل لى الآن : ماذا يعنيك أن يسىء شفابرين معاملة هذه الفتاة ، أو أن لا يسىء معاملتها ؟.. أتكون عاشقا موالها يا عزيزى ؟ »

– هى خطيبتى !

قلت ذلك اذ لاحظت ان مزاج مضيفى قد تغير تغيرا مواتيا ، واذا لم أجد ما يدعو الى اخفاء الحقيقة عنه ، فهتف يقول : « **خطيبتك ؟.. لماذا لم تقل لى هذا من قبل ؟.. اذن سنزوجك !.. سنحتفل بعرسك !** » . ثم اتجه الى بيلوبورودوف وقال : « اسمع يا فلد مارشال !.. أنا وصاحب النبالة رفيقان قديمان . سنتناول الآن طعام العشاء ، وغدا يخلق الله مالا تعلمون ! »

***

وددت لو استطيع ان ارفض شرف هذه الدعوة ، الا أن مجرد التفكير فى ذلك كان خطرا ، واتت صبيتان من القوزاق

- هما ابنتا صاحب البيت - ففرشتا المائدة بغطاء أبيض ، وجاءتا بخبز وحساء وبعدد من زجاجات البيرة والفودكا .. كانت هذه هى المرة الثـــانية التى أؤاكل فيها بوجاتشيف ورفاقه الفظيعين . وامتدت هذه الوليمة - التى شاركت فيها على غير ارادة منى - الى ساعة متأخرة من الليل . واخذت الخمر تفعل فعلهـا فى الرؤوس ، فاذا بوجاتشيف يغفو فى مكانه . ونهض رفاقه وأوماوا الى بضرورة اخــلاء المكان ، فنهضت وسرت فى اثرهم . واصدر « خلوبوشــا » امره الى الخفير بأن يقودنى الى دائرة البلدية ، حيث وجدت سافيليتش . وتركنا هنالك وحدنا ، بعد أن أحكم اقفال الباب علينا ، وكان « مرشدى » من شدة الدهشة لـكل ما وقع لنا ، بحيث لم يطرح على أى سؤال ، واضطجع فى الظلام ، وظل مدة طويلة من الوقت يتأوه ويطلق من صدره زفرات حرى . ثم نام واخذ يشخر ، بينمـا كنت غارقا فى تأملاتى التى أرقتنى الليل كله .

حتى اذا طلع الصباح ، جاء أحــدهم يدعونى الى لقــاء بوجاتشيف ، فمضيت اليه . ورأيت على الباب عربة شدت اليها ثلاثة احصنة تترية . وكان الشعب محتشدا فى الشارع ، ولقيت صاحبى فى الدهليز مرتديا ثياب السفر : معطفا من فراء ، وقبعة كرخيزية . ورأيت رفاق البارحة يحفون به ، وقد اصطنعوا نوعا من الذل والخضـوع لا يتفق مع كل ما شهدته بالأمس .. وحيانى بوجاتشيف فى مرح ، وأمرنى بأن أصعد العربة ، ففعلت . ثم صعد هو اليها ، وصــاح بالتترى ذى المنكبين العريضين الذى يسوق الخيل : « الى بلوجورسكايا ! »

وخفق قلبى . وتحركت الخيل ، ودق الجرس ، وسارت العربة ، فسمعت صوتا اعرفه كل المعرفة ، ينادى : « قف !

قف ! » .. ورأينا سافيليتش يعدو الى لقائنا ، فأوقف بوجاتشيف الخيل .

ـ اتتركني وحدي ياعزيزي بترو اندريفتش ؟.. اتتركني وحدي في هذه السن بين هؤلاء المج .. ؟!

قال بوجاتشيف : « هذا أنت ايها البوم الهرم !.. على هذا النحو انما أرادت مشيئة الله أن نلتقي مرة أخرى !.. هيا اصعد الى جانب السائق ! » . فصدع سافيليتش بالأمر ، وهو يقول : « ألف شكر يا سيدي ، ألف شكر يا مولانا ، يا أبانا الرحيم . أسأل الله أن يمد عمرك حتى تبلغ مائة عام ، جزاء لك على انك واسيتني واشفقت على عجوز مثلي . سأدعو لك بالسلامة ما حييت ، ولن أجيء بعد الآن على ذكر المعطف المصنوع من فراء الأرنب ! »

***

كان يمكن ان يحنق ذكر هذا الفراء بوجاتشيف ، الا ان الغاصب لم يسمع هذا الكلام احسن الحظ ، أو انه احتقر هذه الاشارة التي جاءت في غير محلها فلم يولها اهتماما . وأخذت الخيل تعدو . وكان الناس يتوقفون في الشارع وينحنون في تحية عميقة ، وبوجاتشيف يوزع التحيات ذات اليمين وذات الشمال . وماهي الا لحظة ، حتى خرجنا من البلدة سائرين في طريق مستقيم .

سهل على القارىء أن يفهم ما كنت أعانيه في تلك اللحظة من مشاعر . بعد ساعات قليلة سألقى تلك التي كنت أعتقد أنني فقدتها الى الأبد .. وحاولت أن أتصور اللحظة التي سنلتقي فيها . وفكرت في هذا الرجل الذي يقبض على ناصية مصيري بيديه ، والذي أصبحت ـ بتعاون ظروف عجيبة ـ مشدودا اليه برابطة خفية . وتذكرت القسوة

المتهورة والغرائز الدموية ، التى تضطرم فى نفس هذا الذى تطوع لانقاذ حبيبتى ! .. كان بوجاتشيف يجهل أنها ابنة الضابط الرئيس ميرونوف . وفى وسع شفابرين - اذا هو أحرج - أن يكشف له عن هذه الحقيقة ، وفى وسع بوجاتشيف أن يطلع عليها بوسيلة أخرى .. فماذا يكون مصير ماريا ايفانوفنا فى الحال ؟ .. سرت فى جسمى كله قشعريرة قوية ، وانتصب شعر رأسى ..

***

وفجأة ، قطع بوجاتشيف تأملاتى ، بأن طرح على هذا السؤال : « فيم يفكر صاحب النبالة ؟ » . فأجبته قائلا : « فيم أفكر ؟ .. افكر فى أننى ضابط نبيل ، كنت بالأمس احاربك ، فاذا أنا اليوم أسافر فى عربتك ، واذا سعادة حياتى كلها رهن مشيئتك ! » .. وعاد يسألنى : « أخائف أنت ؟ » . فأجبته بأننى ، وقد أطلق سبيلى فى المرة الأولى ، أصبحت أطمع .. لا فى عفوه فحسب ، بل فى معونته كذلك .

قال الغاصب : « شهد الله أنك على حق . لقد رأيت كيف كان رجالى يرمقونك بنظرات شذراء ، حتى ان العجوز زعم - فى هذا الصباح نفسه - انك لست الا جاسوسا ، وان الواجب يقضى أن ننكل بك وان نامر بشنقك . الا أننى رفضت أن أوافقه على ذلك . (هنا خفض صوته حتى لا يسمعه سافيليتش والتترى) لأننى مازلت أذكر قدح الخمر الذى قدمته لى ، والفراء الذى أهديته الى . ومن هذا يتضح لك أننى لست شيطانا يمتص الدماء كما يتصور أصحابك ! »

تذكرت الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، ولكننى لم أر من الضرورى ان أناقشه فى رأيه ، فسكت ولم أجب بشىء . وبعد لحظات من الصمت سألنى بوجاتشيف : « ماذا يقولون

عنى فى اورنبورج ؟ »
ـ يقولون ان التغلب عليك ليس بالامر السهل . الحق انك فرضت نفسك !
فما ان قلت هذا الكلام ، حتى انبسطت أسارير بوجاتشيف وارتاح لما حقق طموحه من نصر . فقال جذلا . « نعم ياعزيزى.. أننى أجيد فن الحرب ! ..هل يعلمون فى اورنبورج شيئا عن النتيجة التى اسفرت عنها معركة (يوزيفا) ؟ .. هل يعلمون اننى قتلت أربعين قائدا (جنرالا) ، وأسرت أربع فرق ؟ .. ثم مارأيك أنت ؟ هل يمكن ان يقاس بى ملك بروسيا ؟ »
بدا لى تبجح هذا اللص مضحكا ، فسألته : « وأنت مارأيك ؟..هل تعتقد انك تستطيع الانتصار على فردريك !»
ـ على فيدور فيدوروفتش ؟ ..ولم لا ؟ ..لقد انتصرت على قادتكم ، وقادتكم هؤلاء كانوا قد انتصروا عليه ! ..لقد كان الحظ حليفى فى جميع المعارك حتى الآن . ولكن مهلا ! سترى مايحدث حين أتجه الى موسكو !
ـ اذن فأنت تفكر فى الذهاب الى موسكو ؟
هنا سهم وجه بوجاتشيف لحظة ، ثم قال وقد خفض صوته : « الله أعلم ! .. ما كل مايتمنى المرء يدركه . ان حريتى محدودة ، فرجالى مسرفون فى الحذر.وهؤلاء أناس انذال . يجب ان أكون يقظا .. لسوف يفدون رؤوسهم بتسليم رأسى عند أول هزيمة ! » . فقلت : « أليس من الأسلم اذن أن تتركهم طائعا قبل أن يخونوك ، وان تمضى الى الامبراطورة تلتمس عفوها ؟ »
فابتسم بوجاتشيف ابتسامة من أفاق من سكرته ، ثم قال : « لا . لقد فات أوان التوبة..لن يعفى عنى . سأمضى فى عملى كما بدأته . ومن يدرى ، فقد أفوز . ألم يستطع

جريشا أوتربيف أن يتسنم العرش بموسكو ؟ »

ـ ولكن ألا تدرى كيف كانت خاتمته ؟ .. لقد رموه من النافذة .. ذبحوه ، حرقوا جسمه ، شحنوا برماد جثته احد المدافع ، وأذروه فى مهب الريح !

قال بوجاتشيف فى نوع من الالهام الوحشى : « اسمع ! .. سأروى لك قصة سمعتها فى طفولتى من عجوز كلموكية :

« قال النسر للغراب فى ذات يوم : « قل لى أيها الطائر العجوز ، كيف تعيش أنت ثلاثمائة عام ، ثم لا أبلغ أنا من العمر الا ثلاثة وثلاثين عاما على أكثر تقدير ؟ » .. فأجاب الغراب : « ذلك أنك ياعزيزى تشرب دما حيا ، بينما آكل أنا الجيف » . فقال النسر : « سأفعل مثلما تفعل » . ومضى الغراب والنسر معا ، فاذا هما يريان حصانا ميتا ، فهبطا اليه وانقضا عليه . اما الغراب فأخذ ينقر ويتلمظ . اما النسر فذاق الجيفة مرة أولى ، فمرة ثانية ، ثم حرك جناحيه ، وقال لرفيقه : ((لا ياعم ! .. لأن أشرب الدم ساخنا ولو مرة وحيدة أفضل من أن أطعم الجيف ثلاثمائة عام . والعفو على الله)) ! .. كيف ترى هذه القصة الكلموكية ؟ »

قلت : « جميلة جدا .. ولكننى أرى أن من يعيش على السلب والقتل ، فهو يطعم جيفا » . فألقى على بوجاتشيف نظرة دهشة ، ولم يجب بشىء . ثم صمتنا ، وغرق كل منا فى تأملاته الخاصة .. وأخذ التترى يغنى أغنية حزينة . ثم غفا سافيليتش وهو يترنح فوق مقعده . وكانت العربة تنهب الطريق المفروشة بالثلج نهبا ..

وفجاة ، بصرت على ضفاف (اليائيق) الوعرة ، بقرية اطلت علينا ببرج كنيستها وسياج أسوارها . وما هو الا ربع ساعة ، حتى كنا فى (بيلوجورسكايا) ..

(١٢) يتيمة !

« مسكينة شجرة التفاح فى بيتنا ..
« مالها راس ولا اغصان ؟
« مسكينة اميرتنا الغالية ..
« مالها اب ، ولا لها آم ..
« مالها أحد يزينها بالحلى ..
« مالها أحد يبارك زواجها » !

من أغانى الاعراس

• وقفت العربة امام منزل الآمر . وكان الشعب يتبعنا راكضا ، اذ عرف مركبة بوجاتشيف من رنين أجراسها . ولقينا « شفابرين » على عتبة الباب . كان يرتدى لباسا قوزاقيا ، وكان قد أرخى لحيته . وهب هذا الخائن الى مساعدة بوجاتشيف على النزول من العربة ، وراح يتزلف اليه باجبن العبارات ، مظهرا ولاءه معبرا عن فرحه . واضطرب حين رآنى ، ولكنه سرعان ما استماد رباطة جأشه ، فمد الى يده وهو يقول : « اصبحت اذن من جماعتنا ! .. حقا لقد آن الأوان » . فأدرت ظهرى له ، ولم أقل شيئا .

وانقبض صدرى حين رايتنى فى هذه الغرفة التى أعرفها حق المعرفة .. كانت شهادة المرحوم آمر الموقع لاتزال معلقة على الحائط ، تذكر على حزن وحسرة بالعهد الذى انقضى . وجلس بوجاتشيف على الديوان ـ الذى كان ايفان كوزمتش يغفو فوقه ، تهدهده ثرثرات زوجه ـ فقدم له شفابرين قدحا من الفودكا بنفسه ، فابتلعه بوجاتشيف دفعة واحدة ، وقال وهو يشير الى باصبعه : « قدم قدحا لصاحب النبالة ! »

فتقدم منى شفابرين بطبقه ، الا أننى أشحت بوجهى مرة

اخرى ، فبدا عليه الاضطراب . لقد ادرك ولاشك ـ بما يملك من نفاذ البصيرة ـ ان بوجاتشيف غير راض عنه ، فظهر عليه الوجل ، ورماني بنظرات تفيض شكا وارتيابا . وسأله بوجاتشيف عن حالة الموقع ، وعما يشاع عن تقدم العدو ، الى آخر ما هنالك ، ثم باغته على حين غرة بهذا السؤال :
« قل لى يا عزيزى ، من هى تلك الفتاة التى تسجنها فى بيتك ؟ .. أحب ان أراها ! »

فامتقع وجه شفابرين حتى أصبح كوجوه الموتى اصفرارا ، ثم قال بصوت مرتجف : « ليست سجينة يا سيدى ، وانما هى مريضة .. راقدة فى غرفتها » . فأجاب الغاصب وهو ينهض عن الديوان : « امض بى اليها ! » .. واذا أصدر الزعيم امرا ، فلا مجال ثمة للمناقشة .. كان لابد لشفابرين من أن ينفذ الأمر ، فصعد به نحو غرفة ماريا ايفانوفنا ، وتبعتهما . فاذا شفابرين يتوقف على السلم قائلا : **« مولاى ! .. لك أن تطلب الى كل ما تشاء ، ولكن لاتسمح لغريب أن يدخل الى مخدع زوجتى ! »**

فما سمعت هذا الكلام حتى ارتجفت من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، فصحت بشفابرين ، وأنا مستعد لأن أمزقه اربا : « اذن تزوجت ؟ ! » . فقاطعنى بوجاتشيف بقوله : « على مهلك .. هذا من شأنى ! .. وانت ياشفابرين ، ليس لك أن تتعلل ولا أن تتبرم .. سواء أكانت الفتاة امرأتك أم لم تكن ، فلى أن احضر اليها من أشاء من الناس . اتبعنى ياصاحب النبالة ! »

وتوقف شفابرين مرة اخرى امام الغرفة ليقول بصوت متهدج : « مولاى ، انها مصابة بحمى شديدة ، وهي تهذى بلا انقطاع منذ ثلاثة ايام » .. فصاح به : «افتح هذا الباب !»

اخذ شفابرين يبحث فى جيوبه مدة طويلة ، ثم أعلن انه نسى المفتاح . فما كان من بوجاتشيف الا ان ركل الباب بقدمه ، فاذا بالقفل ينكسر ، واذا بالباب يفتح ، فدخلنا الغرفة . وكدت أقع مغشيا على .. رأيت ماريا ايفانوفنا — وقد اشتد نحولها وشحب وجهها وتشعث شعرها — جالسة على الأرض ، فى ثوب بسيط ممزق مما ترتديه الفلاحات ، وأمامها جرة ماء مغطاة بقطعة من الخبز . **فلما رأتنى ادخل ، انتفضت ، وانطلقت من صدرها صيحة .** ولا تسلنى عما فعلته عندئذ ، فاننى لا أتذكر من ذلك شيئا الآن .

ألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة ساخرة ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة مرة : « انه لمستشفى ممتاز ، مستشفاك هذا ! » ..ثم اقترب من ماريا ايفانوفنا وخاطبها بقوله : « قولى لى ايتها الحمامة ، لماذا يعاقبك زوجك ؟ .. ما مأخذه عليك ؟ »

— **زوجى ؟ .. ليس هو بزوجى ، ولن اكون زوجته فى حياتى !** .. لقد آثرت ان أموت على ان أتزوجه ، وسأموت ان لم يخلصنى احد منه !

فألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة حانقة وقال : «ها ! لقد جرؤت اذن على خداعى ؟ .. هل تدرى ايها النذل ماتستحقه من عقاب ؟ » . فما كان من شفابرين الا أن جثا على ركبتيه . فرأيت الاشمئزاز يتغلب فى نفسى على جميع عواطف الكره والغضب . وأخذت أنظر فى احتقار الى هذا السيد النبيل يتهالك على قدمى قوزاقى هارب من السجن !

***

وهدأ روع بوجاتشيف فقال : « سأعفو عنك فى هذه المرة ، ولكنى سأذكرك بهذه الخطيئة عند أول خطيئة اخرى

تركبهـا ! » . ثم التفت الى ماريا ايفـانوفنا ، فقال لها فى كثير من اللطف : « أخرجى من هنا أيتها الجميلة ، فأنى أرد اليك حريتك . . أنا القيصر ! »

فالقت عليه ماريا ايفانوفنا نظرة سريعـة ، وأدركت انها امام قاتل أبويها ، ففطت وجهها وسـقطت مفشـيا عليها . فهرعت اليها أريد أن اسـعفها ، الا ان « بالاشا » اقتحمت الغرفة ـ فى هذه اللحظة ـ واخذت تسعف سيدتها . فترك بوجاتشيف الغرفة ، ونزلنا جميعا الى البهو . . وقال لى :

ـ ها قد انقذنا حبيبتك الجميلة يا صاحب النبالة ، فما رايك فى ان نستدعى القس ، وأن نجبره على مباركة زواجك بقريبة زوجته ؟ . . **ساكون انا ابا العريس ، ويكون شفابرين شاهد الزواج** . سـنحتفل بالعرس : « نأكل ونشرب ثم الباب عليكما نغلق » !

هناوقع ما توقعته . فان شفابرين قد فقد صوابه حين سـمع اقتراح بوجاتشيف . فقال فى غضب شديد : « لقد اخطأت يامولاى اذ كذبت عليك ، الا ان جرينيف يكذب عليك ايضا . . ليست هذه الفتاة قريبة زوجة القس . انها ابنة ايفان ميرونوف ، الذى أعـدم حين الاسـتيلاء على هـذا الحصن ! »

فرشقنى بوجاتشيف بنظرات ملتهبة ، وسألنى مرتبكا : «ماهذا ؟» . فأجبت رابط الجاش : «لقدصدق شفابرين» . فقال بوجاتشيف وقد تجهمت أسارير وجهه : « لم تنبئنى بهذا من قبل ! »

ـ أكان فى وسعى أن أعلن أمام رجالك ، ان ابنة ميرونوف على قيد الحياة ! . . لو قد قلت ذلك لمزقوها إربا ، ولما أمكن انقاذها !

فقال بوجاتشيف ضـاحكا : « **هـذا لعمرى صحيح** . .

ما كان لهؤلاء السكيرين ان يدعوا الفتاة وشأنها . ولقد أحسنت زوجة القس صنعاً حين أخفت عنهم هذه الحقيقة !» . وانتهزت فرصة مرحة هذا ، فتابعت كلامي أقول : «اسمع ! .. لا اعرف كيف ادعوك ، ولا أحب ان أعرف كيف ادعوك ، ولكن يشهد الله انني مستعد لأن ادفع حياتي ثمناً لما قدمت لي من صنيع . على أنني أرجوك ان لا تكلفني شططا فتطلب الي امراً لايتفق مع شرفي ووجداني المسيحي .. أنعم مابداته ، ودعني امضي بهذه اليتيمة الى حيث يشاء لنا الله ان نمضي . ولك علينا عهد الله ــ أينما كنت ومهما يقع لك من أحداث ــ أن ندعو لك الله في كل يوم ، نسأله المغفرة عن خطاياك ! »

وبدا على اللص أن روحه العاتية قد تأثرت بهذا الكلام ، فقال : « لك ماتشاء ! .. أنا ان عاقبت كان عقابي صارماً ، وان عفوت كان عفوي كاملا ، تلك عادتي .. خذ حبيبتك الجميلة ، وامض بها الى حيث تشاء ، واني لأسأل الله ان يباركما وأن يحميكما من كل سوء ! »

ثم التفت الى شفابرين ، فأمره بأن يعطيني « رخصة مرور » في جميع المراكز والحصون التابعة لسلطته .. وكان شفابرين كالمصعوق من هول مايرى . ثم مضى الغاصب يفتش الحصن مصطحباً شفابرين ، وبقيت أنا في البيت متعللا بأنني أريد ان أعد للسفر عدته ..

وهرولت الى الطابق الأعلى ، فوجدت الباب مغلقاً ، فقرعته ، فأجابت بالاشا : « من الطارق ؟ » . واذ ذكرت اسمي ، سمعت صوت ماشا الساحر يجيب : «انتظر يابترو اندريفتش ، فانني ارتدي ثيابي .. اذهب الى آكولينا بامفيلوفنا ، وسالحق بك على الفور ! » . فصدعت بالأمر ، ومضيت الى منزل القس ..

وهرع الأب جراسيم وزوجته الى لقائي ، وكان سافيليتش

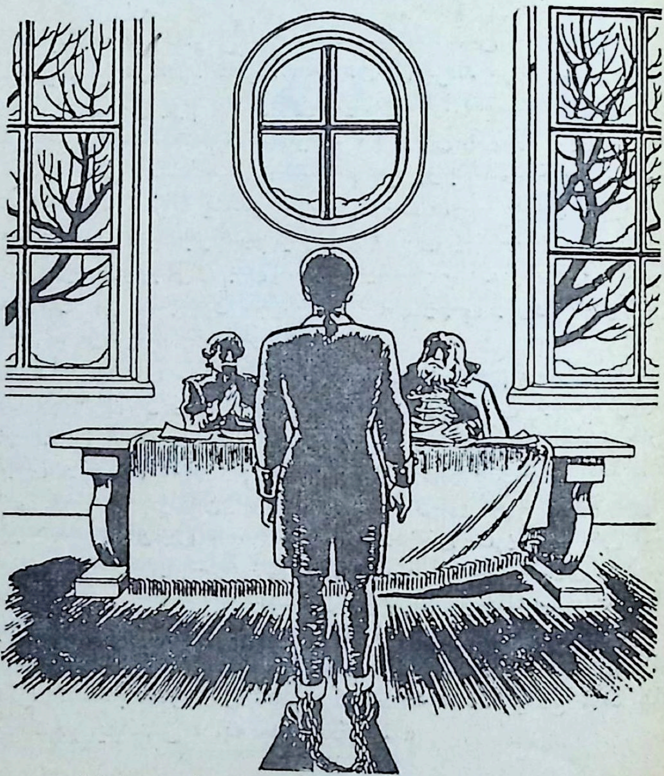

فقال وهو يصعر وجهه : ((أنت ياصاحبى شاطر، ولكننا رأينا كثيرا من الشاطرين أمثالك !)) ..

(ص ١٦٤)

قد أبلغهما نبأ قدومى . فقالت زوجة القس : «مرحبا ببترو أندريفتش ، لقد شاء الله اذن أن نراك مرة اخرى . كنا نذكرك فى كل يوم .. وماريا ايفانوفنا ! لشدما تألمت أثناء غيابك ، هذه الحمامة الغالية ! .. ولكن قل لى يابنى ، ماذا عملت حتى استطعت أن تتفاهم مع بوجاتشيف ؟ .. كيف لم يقتلك ؟ .. انه يشكر على كل حال ، هذا اللص .. ! » . فقاطعها الأب جراسيم يقول : « كفى يا هذه ! .. ليس ضروريا أن تجهرى بكل ما تعرفينه . ان الثرثرة الطويلة لاتؤدى الى النجاة والسلامة . ادخل يابنى بترو اندريفتش ، اننا لم نرك منذ مدة طويلة ! »

وقدمت الى زوجة القس ماتيسر من طعام وشراب ، دون أن تكف عن ثرثرتها لحظة واحدة . فروت لى كيف أكرههما شفابرين على تسليم ماريا ايفانوفنا ، وكيف أخذت ماريا تبكى وتنتحب لأنها لم تشأ أن تفارقهما ، وكيف أنها ظلت على صلة بماريا عن طريق بالاشا (وهى فتاة كانت تعرف كيف تقنع الوكيل نفسه !) . وأفهمتنى أن بالاشا هى التى نصحت ماريا بالكتابة الى . ورويت لهما بدورى خلاصة مالقيت من أحداث ، فما ان عرفا أن بوجاتشيف على علم بأكذوبتهماحتى اضطربا ، وأخذا يرسمان اشارة الصليب .

وقالت زوجة القس : « اللهم عونك .. اللهم أسألك أن تمر السحابة دون أن تنفجر العاصفة ! .. ولكن ، ما هذا الألكسى ايفانتش ؟ انه حقا لحقير ! »

***

فى هذه اللحظة فتح الباب ، وظهرت ماريا أيفانوفنا باسمة . لقد تركت ماكانت ترتديه من ثياب الفلاحات ، وعادت فى ثياب كالتى كانت ترتديها سابقا .. وهى ثياب

بسيطة ، على ذوق . فتناولت يدها ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة .. صمتنا كلانا وقد طفح قلبانا سعادة . وأدرك القس وزوجه انهما زائدان ، فتركانا وحيدين .. فنسينا كل شيء ، وظللنا نتحدث دون ان نستطيع التوقف . قصت على ماريا ايفانوفنا كل ما وقع لها ، منذ الاستيلاء على الحصن . فوصفت لى الحالة الفظيعة التى كانت فيها ، وما عانته من متاعب سببها لها هذا الحقير الكريه شفابرين ، وذكرنا الأيام الخوالى ، فأخذنا نبكى معا .. وطفقت أخيرا أشرح لها ماعزمت عليه من أمر : افهمتها أن من المستحيل ان تبقى فى حصن يخضع لسلطان بوجاتشيف ويأمره شفابرين ، وأن من المستحيل ــ كذلك ــ أن أمضى بها الى (أورنبورج) التى كانت تعانى ماتعانى من هذا الحصار الطويل ، ولم يبق لها من أهل فى هذا العالم . فاقترحت عليها أن نمضى الى منزل أهلى فى الريف . فترددت فى أول الامر ، لخوفها من أن لايشعر أبى نحوها بشيء من المحبة أو العطف ، الا أننى هدأت روعها وطمأنتها .. كنت أعلم أن أبى سيعتقد ان مما يشرفه ان يؤوى فى بيته ابنة محارب قديم ، قضى نحبه فى سبيل الوطن .. وقلت لها أخيرا : « عزيزتى ماريا ايفانوفنا . انى أعدك زوجتى منذ الآن .. ان ظروفا عجيبة جمعت بين قلبينا الى الأبد ، ولن يقوى شيء فى هذا العالم على التفريق بيننا بعد الآن ! »

فأصغت الى كلامى فى بساطة ، دون ان تظهر شيئا من تواضع كاذب أو تعلل معقد .. كانت تشعر أن مصيرها مرتبط بمصيرى ، ولكنها كررت ماسبق أن قالته ، وهو أنها لن تصبح زوجتى قبل أن يوافق ابواى على هذا الزواج .

لم اعارضها فى ذلك ، وتعانقنا فى حرارة وصدق واخلاص . وعلى هذا النحو تم بيننا الاتفاق على كل شىء .

وبعد ساعة ، جاءنى أحد الوكلاء برخصة المرور ، مذيلة بتوقيع مجملك ، هو توقيع بوجاتشيف ، ودعانى الى المثول بين يدى الغاصب . فلما مضيت الى بوجاتشيف ، وجدته يتهيأ للعودة . ولا أستطيع أن أشرح شرحا دقيقا ماشعرت به وأنا أفارق هذا الرجل الفظيع ، الذى كان وحشا ضاريا مع جميع الناس .. الاى ! **علام الكذب ؟ .. الحق أننى شعرت نحوه فى تلك اللحظة بحب قوى ! ..** وكنت أتمنى — من أعماق قلبى — أن أحمله على ترك عصابة اللصوص التى يرأسها ، وأن أنقذ حياته قبل أن يسبق السيف العزل . الا أن شفابرين والجمهور كانوا يحيطون بنا ، فلم أستطع أن أفصح عن كل ما يختلج فى قلبى .

وافترقنا على أحسن مايكون صديقان . ولمح بوجاتشيف «آكولينا بامفيلوفنا» بين الجموع المحتشدة ، فلوح لها بيده مهددا على سبيل الدعابة ، وغمز بعينه غمزة ذات دلالة . ثم صعد الى المركبة . وامر الحوذى أن يعود به الى (بردسك) . وحين سارت الخيل ، أطل من العربة مرة أخرى وصاح بى قائلا : «وداعا ياصاحب النبالة !.. قد نلتقى فى المستقبل» . **ولقد التقينا فعلا ، ولكن يالها من ظروف تلك التى التقينا فيها ! ..** وغاب بوجاتشيف عن انظارنا ، فظللت مدة طويلة اتأمل السهل اللاحب ، الذى كانت مركبته تجتازه سريعة رشيقة . وتفرق الحشد ، وغاب شفابرين .. وعدت الى منزل القس .. كان كل شىء قد اعد للسفر . وكنت لا أحب أن أتأخر أكثر مما تأخرت ، فوضعنا أشياءنا جميعها فى العربة

القديمة ؛ التى كان يملكها الآمر . وسرعان ما كدن الحوذى المركبة . ومضت ماريا ايفانوفنا تزور قبر أبويهـا ، اللذين دفنا وراء الكنيسة . واردت ان أصحبها ، ولكنها رجتنى ان ادعها تمضى الى القبر وحيدة .

وعادت بعد بضعة لحظات وهى تذرف الدموع . ثم جاءت العربة ، وخرج الأب جراسيم وزوجته الى الباب يشيعاننا . واستوينا فى المركبة نحن الثلاثة : انا ، وماريا ايفانوفنا ، وسافيليتش ، الذى جلس الى جانب الحوذى . وقالت زوجة القس الطيبة : « وداعا يا ماريا ايفانوفنا ، ياحمامتى العزيزة ! .. وداعا يابترو اندريفتش ، ياذا القلب النبيل ! .. أرجو لكما رحلة موفقة وحياة سعيدة » .

وسارت بنا المركبة . ولمحت شفابرين ينظر الينا من خلال نافذة بيت الآمر .. كانت ملامحه تعبر عن حنق قاتم . ولم اشأ ان اظهر انتصارى على عدو ذل ، فأدرت وجهى ؛ واجتزنا الأبواب تاركين هذا الحصن الى الأبد .

. . . . .

(١٣) الاعتقال

ـ لا تلمنى يا سيدى ، فواجبى يقضى بان أرسلك فورا الى السجن .

ـ لك ما تشاء . اننى مستعد ، ولكن املى كبير فى أن تتفضل فتصغى الى حججى .

« كينيا جنين »

• **هكذا** وجدتنى مع الفتاة الرائعة ، التى كان مصيرها يقلقني أشد القلق ، فى صباح اليوم نفسه . كنت لا أكاد أصدق أن هذه السعادة ـ التى تغمرنى ـ واقع لا حلم . كان يتراءى لى أن كل ماوقع ليس الا حلما ، لا غد له . وكانت ماريا ايفانوفنا تتأمل الطريق ساهمة سادرة ، كأنها لم تثب الى نفسها بعد . كنا صامتين ، اذ كان قلبانا أملأ من أن نستطيع الحديث . وانقضت ساعتان دون أن نشعر بانقضائهما ، فاذا نحن ندخل الى حصن مجاور خاضع كذلك لسلطان بوجاتشيف ، فهبوا هنالك الى ابدال خيل العربة بسرعة ، وأظهر القوزاقى الألحى ـ الذى كان بوجاتشيف قد عينه آمرا لهذا الحصن ـ كثيرا من الحفاوة بنا ، فأدركت انهم يعدوننى أثير بوجاتشيف ومن المقربين اليه ، وذلك بفضل ثرثرات الحوذى الذى كان يقود مركبتنا .

وتابعنا سيرنا .. واخذ الظلام يهبط . واخذنا نقترب من مدينة صغيرة زعم الآمر الألحى أن فيها قطعة كبيرة من الجنود تتأهب للالتحاق بجيش بوجاتشيف . فلما وصلنا الى هذه المدينة الصغيرة ، استوقفنا عدد من الخفراء . وسألوا من نحن ، فأجاب الحوذى : « صديق صاحب الجلالة ، مع السيدة زوجته » . **فاذا بجماعة من الفرسان تحيط بنا فجاة ، وتاخذ تكيل لنا الوانا من الشتائم .**

وصاح بى رقيب المساكن : « انزل ياصديق الشيطان !

.. انزل الى حمام ساخن ، أنت والسيدة زوجتك ! » .. فنزلت من المركبة ، وامرت أن يمضوا بى الى آمر الموقع . فلما رأى الجنود أننى ضابط ، كفوا عن شتائمهم .

وتقدمنى رقيب المساكن يقودنى الى مقر المقدم ، فاقترب منى سافيليتش يدمدم بقوله : « شىء عظيم ! .. صديق صاحب الجلالة ! .. هربنا من الدب ، فوقعنا فى الجب . رباه ! ترى ما النهاية التى سنؤول اليها ؟ » . وتبعتنا المركبة .

وماهى الاخمس دقائق ، حتى وصلنا الى منزل تخرج منه أنوار ساطعة . فتركنى الرقيب فى حراسة رجاله ، ودخل يؤذن بنا . ثم مالبث أن عاد يعلمنى **أن صاحب النبالة الرفيعة لا يتسع وقته للقاء الآن ، وأنه أمر بوضعى فى السجن وبادخال السيدة اليه** . فصرخت فى غضب شديد : « نعم ؟.. أهو مجنون ؟ » . فأجاب : « لا أدرى يا صاحب النبالة ، الا أن صاحب النبالة الرفيعة أمر بأن نضع نبالتكم فى السجن ، وأن ندخل اليه السيدة زوجة نبالتكم ، يا صاحب النبالة ! »

فاندفعت نحو الباب . ولم يدر فى خلد الجنود أن يستوقفونى . ودخلت قدما الى غرفة رأيت فيها ستة من الضباط يقامرون . كان المقدم هو الذى يوزع الورق . وما كان أشد دهشتى ــ حين نظرت اليه من كثب ــ فعرفت فيه **ايفان ايفانوفيتش زورين ، الذى علمنى لعب ((البليارد)) ، وغلبنى فى فندق (سمبرسك) !**

فهتفت أقول : « أهذا ممكن ؟.. ايفان ايفانوفيتش !.. أهذا أنت ؟ »

ــ ها ، بترو اندريفتش !.. أية ريح ساقتك الينا ؟ .. من أين أنت آت ؟ أهلا وسهلا !.. تعال شاركنا اللعب !

– شكرا !.. افضل أن تأمر لى بمنزل أبيت فيه .

– مالك وللمنزل !.. ستبيت عندى !

– لا أستطيع .. لست وحدى !

– تعال أنت ورفيقك .

– لست فى صحبة رفيق . انها .. سيدة .

– سيدة ؟ أين عثرت عليها يا عزيزى ؟

قال زورين ذلك ، ثم أرسل صفرة مضحكة ، قهقه لها الجميع ، فاضطربت اشد الاضطراب . وتابع زورين كلامه يقول : « حسنا ، سنهيىء لك منزلا تبيت فيه . ولكن هذه خسارة !.. كان يمكن ان نسهر الليلة معا ، كما كنا نفعل فى السابق » . ثم التفت الى الجندى يقول : « ماذا تنتظر ؟.. لماذا لم تدخل صديقة بوجاتشيف ؟.. هل مانعت فى الدخول ؟.. قل لها انه لا خوف عليها ، فاننى انسان نبيل ، لا أكره أحدا على مالا يحب .. ليس لها أن تتدلل ! »

فتدخلت أقول : « ما هذا الكلام ؟.. ليست هذه السيدة صديقة بوجاتشيف ، وانما هى ابنة الضابط الرئيس ميرونوف ، حررتها من الأسر ، وأنا ذاهب بها الآن الى أرضنا، لأتركها فى كنف أهلى ! »

– ما هذا الكلام ؟.. اذن فالشخص الذى أبلغونى نبأ اعتقاله – منذ قليل – هو أنت ؟.. ما معنى هذا كله ؟ اننى لا افهم ..

– سأروى لك كل شىء فيما بعد ، وانما أرجوك الآن أن تطمئن هذه الفتاة المسكينة التى روعها فرسانك .

فنهض زورين من مكانه على الفور ، وخرج بنفسه الى

الشارع ، يعتذر لماريا ايفانوفنا عما وقع من التباس لا ارادة له فيه . وامر عريف المساكن بأن يعد لسكناها اجمل بيت في المدينة . اما انا ، فمكثت عنده .

***

وبعد أن تناولنا طعام العشاء بمفردنا وحدنا . فقصصت له ما وقع لي ، فكان يصغي الى حديثي في انتباه شديد . حتى اذا فرغت من الكلام هز رأسه وقال : « هذا كله معقول ياعزيزي ، الا أن ثمة شيئا لا أفهمه : «ماحاجتك الى الزواج؟ انني انسان شريف ، انني ضابط ، وليس بي من حاجة الى خداعك . صدقني اذا قلت لك ان الزواج سخف كبير !.. ليس من شأنك أن تتورط بامرأة ، وأن تعنى بأطفال صغار !.. دعك من هذا ، واسمع ما أقوله لك : **تخلص من ابنة الضابط الرئيس !** .. لقد طهرت طريق (سمبرسك) فأصبح خاليا من أي خطر . **ارسل الفتاة في الغداة وحيدة الى أبويك ، وامكث أنت هنا في فرقتي**. دعك من العودة الى اورنبورج ، والا فقد تقع مرة اخرى في قبضة العصاة ، فما تستطيع التخلص منهم بمثل تلك السهولة .. ثم ينقضي جنون الغرام ويمسي كل شيء على ما يرام ! »

ورغم انني لم اوافق « زورين » كل الموافقة، فقد شعرت ان الواجب يقتضي وجودي في جيوش الامبراطورة ، فقررت ان اعمل بنصيحته : **أرسل ماريا ايفانوفنا الى اهلي وأبقى في فرقة زورين .**

وجاء سافيليتش يخلع ملابسي ، فذكرت له أن عليه أن يتهيأ للسفر غدا مع ماريا ايفانوفنا ، فاخذ — في أول الامر —

يمانع ، قائلا : « ما هذا الكلام ياسيدى ؟ كيف تريد منى أن أتركك !.. ومن ذا الذى يعنى بك اذا أنا تركتك ؟ وما عسى أن يقول أبواك ، اذا أنا تركتك ؟ »

ولما كنت أعرف عناد صاحبى : فقد قررت أن آخذه بالرفق واللين ،وأن أصارحه بكل شىء . فقلت : « أرجوك ياصديقى العزيز ارخيب سافيليتش !.. لا ترفض لى هذا الطلب . احسن الى بتحقيق هذا الطلب . لست فى حاجة الى من يخدمنى ، ولسوف يقلقنى جدا أن تسافر ماريا ايفانوفنا وحدها . وان أنت خدمت ماريا فانما تخدمنى أنا ، لاننى عازم عزما أكيدا على الزواج بها متى سمحت الظروف بذلك ! » .. وهنا ضم سافيليتش يديه ـ احداهما الى الاخرى ـ وظهرت فى وجهه علائم دهشة يعجز الكلام عن وصفها واخذ يقول : « تتزوج بها ؟ الولد يريد أن يتزوج !.. وما عسى أن يقول أبواك فى هذا الأمر ؟ وما عسى أن يكون رأى أمك ؟ »

ـ لعلهما يوافقان حين يعرفان ماريا ايفانوفنا .. ثم اننى اعتمد عليك . ان أبوى يثقان بك ، ولا شك أنك ستشجعهما على هذه الموافقة ، أليس كذلك يا سافيليتش ؟

فأجاب : « عزيزى بترو اندريفتش .. صحيح أنك أصغر سنا من أن تتزوج ، ولكن ماريا ايفانوفنا آنسة ممتازة ، ومن الخطأ أن تفوت هذه الفرصة ! نعم ، نعم .. سأصحبها .. سأصحب هذا الملك الهابط من السماء ، وسأقول لأبويك ـ فى اخلاص الخادم الامين ـ ان خطيبة كهذه يجب ان لاتطالب بمهر ! »

فشكرت لسافيليتش شهامته ، ورقدت فى غرفة زورين .. وكنت فى حالة من الانفعال والحماسة ، فأخذت أثرثر .

وظهر على زورين – فى أول الامر – أنه مستعد للحديث ، ولكن سرعان ما قل كلامه وتشوش شيئا بعد شىء . حتى اذا طرحت عليه سؤالا أخيرا ، كان جوابه أن أخذ يشخر ؛ واخذ أنفه يصفر . فانقطعت عن الكلام ثم مالبثت أن اقتديت بـه .

وفى الصباح من الغداة ، ذهبت الى ماشا أطلعها على ما عزمت عليه من أمر ، فما لبثت ان حبذته ، لأنها رات فيه عين الحكمة والصواب . وكان على فرقة زورين أن تترك المدينة فى ذلك اليوم نفسه ، فالوقت ضيق يجب أن لا يضيع منه شىء . فما لبثت أن ودعت ماريا ايفانوفنا ، وأنا أعهد بها الى سافيليتش واحمله رسالة الى أبوى . وأخذت ماريا تبكى ، وقالت فى لطف « فى رعاية الله يابترو اندريفتش . لا يعلم الا الله هل نلتقى مرة أخرى أو لا نلتقى ، **ولكننى لن أنساك ما حييت .. ستبقى وحدك فى قلبى الى أن ألفظ آخر أنفاسى ! »**

ولم أستطع أن أجيبها بشىء ، لأننى لم أشأ أن أظهر للناس العاطفة التى تعتلج فى قلبى . حتى اذا سافرت ماريا ايفانوفنا ، عدت الى بيت زورين حزينا صامتا . وأراد أن يواسينى ، وأحببت أنا أن أسرى عن نفسى ، وأن ابدد كآبتى ، فقضينا سحابة النهار فى صخب وعربدة . حتى اذا أقبل المساء ، تركنا المدينة لنمضى الى العمل .

***

كان ذلك فى اواخر شهر شباط (فبراير) . وكان فصل الشتاء – الذى يعرقل الاعمال الحربية – مشرفا على نهايته ، وقادتنا يتهيأون للشروع فى عمل مشترك حاسم . وكان

بوجاتشيف لا يزال يحاصر (اورنبورج) فاستطاعت قطعاتنا ان تتلاقى متأهبة لتطويق عرين اللصوص ، وأخذت القرى المتمردة تستسلم لدى رؤية جيوشنا، وراحت عصابات العصاة تتبعثر فى كل مكان كلما اقتربنا منها ، وبات كل شيء يبشر بنهاية سريعة موفقة .

وما لبث الجنرال الامير جالتسين أن أحرز فى (تاتيشيفا) انتصارا حاسما على بوجاتشيف ، فشتت شمل عصاباته ، وحرر اورنبورج ، ولاح ان الفتنة قد شارفت على الانتهاء. وأرسل زورين يلاحق فلول الباشكير العصاة ، الذين كانوا يهربون قبل أن نصل اليهم. ثم أدركنا الربيع فى قرية تترية .. وكانت الانهار قد بدات تفيض ، فانقطعت الطرق ، واضطررنا الى التوقف عن العمل . وكنا نسرى عن انفسنا بالتفكير فى خاتمة هذه الحرب المملة ؛ التى اشهرناها على لصوص وعلى همج.. الا ان بوجاتشيف كان لا يزال طليقا . ثم لم يلبث أن ظهر فى مناجم سيبيريا ، وأخذ يجمع عصابات جديدة ويستأنف جرائمه . وذاعت انباء انتصاراته مرة اخرى . **وسرعان ما طرق أسماعنا نبأ استيلائه على (قازان) واتجاهه نحو موسكو ..** فأقلق ذلك قادة الجيش أيما قلق. بعد أن هدهدهم هذا الحلم العذب ، وهو القضاء على اللص الحقير .

وصدر الأمر الى زورين باجتياز نهر الفولجا ، والاتجاه بسرعة نحو (سمبرسك) ، حيث أحرزت الفتنة انتصارات سريعة . فلما تصورت انني سأتمكن من المرور بارنسن ، لأعانق أبوى ، وارى ماريا ايفانوفنا ، بلغت من شدة الفرح انني اخذت اقفز كطفل ، واقبل زورين ، واردد بلا انقطاع .

« الى سمبرسك ، الى سمبرسك ! » . فكان زورين يزفر ثم يقول وهو يهز كتفيه : « لا ، لا .. ان نهايتك لسيئة ان انت تزوجت .. سيكون فى ذلك ضياعك ! »

***

واقتربنا من ضفاف الفولجا ، واحتلت الفرقة قرية « س .. » ، وقضت فيها ليلتها . وكان علينا أن نجتاز النهر بكرة فى الغداة . فقال لى عمدة القرية ان جميع القرى الواقعة على الضفة الاخرى قد التحقت بالثورة ، وان عصابات بوجاتشيف تطوف المنطقة كلها . فأقلقنى هذا النبأ كثيرا ، وشعرت باضطراب كبير ، **ولم أجد الى الراحة سبيلا .. كانت أرض أبى واقعة على بعد ثلاثين فرسخا وراء الضفة الثانية** . وسألت : هل من وسيلة الى ايجاد قارب اجتاز به النهر .. ولكن جميع الفلاحين كانوا يمارسون الصيد ، فقيل لى : « حذار !.. انه لمن الخطر ان تسافر وحدك . انتظر حتى الصباح ، فسنجتاز النهر اول من يجتازه ، فنمضى الى زيارة أهلك يصحبنا خمسون فارسا . تفاديا لكل خطر ! »

وأصررت على رأيى ، فأعد القارب ، واستويت فيه مع اثنين من المجدفين . وانفصلنا عن الشاطىء ، وأخذت المجاديف تضرب الماء . كانت السماء صافية والقمر ساطعا ، والجو ناعما ، و (الفولجا) يجرى فى عظمة وجلال ، والقارب ينزلق على صفحة المياه المظلمة فى ترنح يسير .. وانقضى على ذلك نصف ساعة . كنت قد تركت العنان لخيالى يعبث ما شاء له العبث ، فرحت أفكر فى هدوء الطبيعة ، وأحوال السياسة ، والحب ، الخ .. حتى وصلنا الى منتصف النهر ،

وفجاة تبادل الرجلان بضع كلمات بصوت منخفض ، فثبت الى نفسي ، وسألتهما : ((ماذا تقولان ؟)) . فأجابا وهما ينظران الى جهة من النهر : « لا ندرى ما هذا ! الله يعلم ما هو !.. »

فنظرت ، فاذا أنا ابصر فى ضوء القمر الشاحب شيئا يتحرك على صفحة الماء ، فى اتجاه مجرى النهر . كان هذا الشيء المجهول يقترب منا ، فأمرت الرجلين أن يقفا منتظرين .. وجاءت سحابة فغطت القمر ، واصبح الشبح المتحرك مظلما . وزاد اقترابه منا ، الا أننى لم أستطع تمييزه بعد .. فقال الرجلان : « ولكن ما عسى أن يكون هذا ؟.. انه ليس شراعا ولا صاريا » . وانقشعت السحابة فجأة عن وجه القمر ، فاذا نحن نرى منظرا رهيبا .. انها مشنقة نصبت فوق رمث (١) ياتى نحونا . وعلى المشنقة ثلاثة مشنوقين .. وسيطر على نوع من الفضول المرضى ، واردت أن أرى وجوه هذه الضحايا ، فأمرت الرجلين ان يحاذيا الرمث ، فأنشبا فيه .. واصطدم قاربى بالمشنقة العائمة ، فقفزت الى الرمث، فاذا أنا أمام ثلاث جثث تعيسة رهيبة . وكان القمر يلقى على وجوهها المشوهة نورا واضحا . أما الاول فكان شوفاشيا (٢) عجوزا ، وأما الثانى فكان فلاحا روسيا قويا بدينا ، بدا فى العشرين من عمره ، وأما الثالث فقد شدهت حين نظرت اليه ، ولم أستطع الا أن أرثى لحاله .. كان « فانكا » .. فانكا المسكين ، الذى دفعته حماقته الى

---

(١) الرمث خشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى الماء .

(٢) الشوفاش قوم من اصل فنلندى يقيمون فى وادى الفولجا (اقليم سمبرسك ، وفازان .. الخ .)

الالتحاق بالثائرين . ورأيت لوحة سوداء فوق رؤوسهم ، وكتبت عليها بأحرف بيض هذه العبارة : « لصوص وعصاة » .. وكان الرجلان ينتظرانى وهما يمسكان الرمث بالكلابة . فعدت الى القارب ، وتابع الرمث سيره الجنائزى . وظللنا مدة طويلة نميز المشنقة فى الظلام ، ثم غابت عن أعيننا ، ووصل قاربنا الى ناحية عالية وعرة من الضفة الثانية .

***

نقدت الرجلين أجرا كبيرا . وقادنى احدهما الى عمدة القرية ، الذى كان يقيم فى مكان قريب من النهر . فلما علم العمدة اننى أطلب خيلا ، نظر الى فى أول الأمر نظرة متكبرة ، الا أن دليلى همس فى اذنه ببضع كلمات ، فاذا خشونته تنقلب حالا الى حفاوة بالغة . وما هى الا لحظات حتى كانت العربة معدة ، فصعدت اليها وامرت الحوذى بالمضى الى قريتى .. وسارت العربة بسرعة ، مارة بقرى نائمة . وكنت لا أخشى الا شيئا واحدا ، هو ان اوقف فى الطريق . **ولكن ، لئن كان مارأيته فى الفولجا دليلا على وجود ثائرين ، فانه كان ـ كذلك ـ دليلا على قوة السلطات** . وكنت ـ على كل حال ـ أحمل رخصة السفر التى بذيلها توقيع بوجاتشيف ، وأحمل كذلك أمر السير الذى يمهره توقيع العقيد زورين . الا اننى لم الق احدا .

ولما طلعت تباشير الصباح ، رأيت نهرا ، ورأيت الحقل الذى تقوم وراءه قريتنا . وراح الحوذى يضرب الخيل بالسوط . وماهى الا ربع ساعة حتى كنت فى قرية (س ..) . ولكن القصر الذى يقيم فيه سيد القرية ، كان يقع فى آخرها .

واخـذت الخيل تعدو بسرعة كبيرة . وفجأة ، اخذ الحوذى يستوقفها ـ بشد اللجم شدا قويا ـ فى وسط الشـارع . نسألته فى لهفة : « ماذا هنالك ؟ » . فأجاب وهو لايوقف الخيل الجامحة الا فى كثير من العناء : « ان الطريق مسدودة » .

نظرت ، فاذا انا ارى حاجزا رفع فى منتصف الطريق ، وقام الى جانبه حارس مسـلح بدبوس . واقترب الفلاح ، فرفع قبعته ، وطلب الى ابراز جواز السفر . **فسألته قائلا : « ماهذا الحـاجز ؟ .. ومن ذا تراقب ؟ » . فأجاب وهو يحك ظهره : « لقد التحقنا بالثورة ياعزيزى »** . فسألته وقد انقبض صدرى : « وأين سادتكم ؟ »

ـ سادتنا فى عنبر القمح .

ـ فى عنبر القمح ؟

ـ نعم ياعزيزى ! .. ولقد قيدهم المسجل بالحديد ، وهو يزمع أن يذهب بهم الى القيصر !

ـ رباه ! افتح هذا الحاجز ايها الأبله ، هيا افتح ! .. ماذا تنتظر ؟

وتردد الحـارس ، فقفزت من العربة ، وضربتـه على اذنه ، وازحت الحاجز بنفسى ، وهو يتطلع الى بنظرة مرتبكة بلهاء . ثم صعدت العربة ، وأمرت الحوذى بأن يمضى بى الى سيد المنزل .. كان عنبر القمح يقوم فى وسـط العرصة . ورأيت أثنين من « الموجيك » يحرسان مدخل البيت ، وقد تسلح كل منهما بدبوس . وقفت العربة امام الباب ، فقفزت منهـا الى الأرض ، واتجهت اليهما رأسـا . فقلت آمرا : « افتحا الباب ! »

***

ربما كان منظرى رهيبا مخيفا . والمهم ـ على كل حال ـ انهما فرا مسرعين ، ورمى كل منهما دبوسه على الأرض. وحاولت أن أحطم القفل ، وأن أقتحم الباب ، الا أن الباب كان مقيدا بالسلاسل ، لا سبيل الى قهره.. وفى هذه اللحظة، خرج من جناح الخدم شــاب من الموجيك ، وسألنى بلهجة صلفة : «كيف جرؤت على فعل مافعلت ؟» . فصرخت أقول: «أين المسجل اندروشكا ؟ .. أئتنى به ! »

ـ انه انا . واسمى آندريه آفاناسيفتش ، لا اندروشكا .. ماذا تريد ؟

قال ذلك فى زهو وكبرياء ، وقد وضع يديه على خصره . ولكننى بدلا من أن أجيب على سؤاله ، أمسكت به من ياقته، وجررته حتى وصلت الى باب العنبر ، فأمرته بأن يفتحه . واراد أن يحتج ، وأن يعيط ، ولكننى سرعان مالطمته بضع لطمات هدات روعه . فأخرج من جيبه مفتاحا ، وفتح العنبر . وهرعت الى الداخل . وهناك ، فى ركن مظلم لايدخل اليه النور الا من ثقب صغير فى السـقف ، رأيت أبوى .. كانت ايديهمـا مقيدة ، وكانت أرجلهما مقيدة .. ارتميت عليهما دون ان اقول كلمة واحدة . واخذا يتفرسان فى دهشين .. ان هذه السنين الثلاث ـ التى قضيتها فى الخدمة العسكرية ـ قد بدلت ملامحى ، حتى انهمـا لم يعرفانى . وفجأة ، سمعت صوتا ساحرا إعرفه يقول : « هـذا انت يابنرو اندريفتش ؟ »

فالتفت ، فرايت ماريا ايفـانوفنا فى ركن آخر ، مقيدة كذلك .. وصعقت !.. واخـذ ابى ينظر الى صامتا ، وهو

لايصدق عينيه . كان الفرح يضىء وجهه . ثم قال وهو يشدنى الى صدره : « لقد عدت يابنى ؟ .. الحمدلله ، الحمدلله !» .. واطلقت أمى صرخة من صدرها ، ثم اجهشت فى بكاء غزير . وقالت : « بنى ، حبيبى ! .. لقد شاء الله أن يأتى بك الى هنا ، ولكن كيف حالك ؟ »

وسارعت فحللت وثاقهم بسيفى . لأخرجهم من هذا المكان . الا اننى حين اقتربت من الباب ، وجدته مغلقا من جديد . فصحت حانقا أنادى أندروشكا : « أندروشكا .. افتح الباب ! » . فأجاب من الخارج : « لا ، لا .. ماعليك الا أن تبقى هنا . سنعلمك كيف تخرج على القانون وتهين موظفى القيصر ! »

وأخذت أفحص العنبر ، لعلى أجد وسيلة تتيح لنا الهرب . فقال أبى : «هذا عبث ! .. لست من المالكين الذين يدخلون الى عنابرهم ثم يخرجون منها بممر خفى ! » .

لقد سرت أمى فى أول الأمر لرؤيتى ، ثم ما لبثت أن انحدرت الى غم شديد ، اذ رأتنى ألقى نفس المصير الذى يهدد الأسرة كلها . أما أنا ، فقد شعرت بالهدوء والطمانينة منذ وجدتنى الى جانب أبوى والى جانب ماريا ايفانوفنا . وكنت ما أزال أملك سيفى وأملك مسدسين ، وهذا مايتيح لى أن احارب اذا اقتضى الأمر . وكان على زورين أن يصل فى المساء ، ولا بد أن يحررنا متى وصل . فأنبأت أهلى بذلك ، واستطعت أن أهدىء من روع أمى ومن روع ماريا ايفانوفنا ، فغرهما فرح رؤيتى مرة أخرى .

***

وقضينا ساعات طويلة فى مداعبات وأحاديث لاتنقطع .

قال أبى : «هيه ، يابترو .. لقد فعلت الأفاعيل ، وما أشد ما ضقت عليك ، ولكنا لانريد أن نتحدث الآن فى امور الماضى .. ارجو أن تكون قد شفيت الآن من حماقاتك . اننى أعلم انك قد قمت بواجبك العسكرى على النحو الذى يليق بضابط شجاع ، فشكرا لك .. ان هذا لما يعزى رجلا عجوزا مثلى . واذا تمت نجاتنا على يدك ، كان سرورى بها مضاعفا ! » .. فقبلت يد أبى وأنا أبكى . والقيت نظرة عجلى على ماريا ايفانوفنا ، فكانت من شدة الفرح لحضورى ، بحيث كانت تبدو هادئة كل الهدوء ، سعيدة كل السعادة .

وفى نحو الظهيرة ، سمعنا صراخا وضجة غير مألوفة . فسأل أبى : «ماهذا ؟.. أيكون صاحبك العقيد قد وصل ؟» .. فقلت : «هذا غير ممكن .. انه لايستطيع الوصول قبل المساء » .

زادت الضجة ، ودق ناقوس الخطر ، وسمعنا وقع حوافر الخيل تجرى فى باحة المنزل عدوا . وفى هذه اللحظة ، رأينا راس سافيليتش الأشيب يطل من ثقب فى جدار العنبر ، وسمعته يقول فى توجع : « آندريه بتروفتش ، وبنى بترو اندريفتش ، وماريا ايفانوفنا !.. لقد وصل اللصوص الى القرية ! .. وهل تعرف يابترو اندريفتش من على رأسهم ؟ .. انه شفابرين ، اليكسى ايفانتش ، قاتله الله ! »

حين سمعت ماريا ايفانوفنا هذا الاسم الكريه ، ضمت يديها احداهما الى الاخرى ، وتسمرت فى مكانها وقد لاح فى وجهها يأس رهيب . فقلت : « اسمع ياسافيليتش ! .. ارسل أحدا ـ على حصان ـ الى ضفة النهر ، يستقبل فرقة الفرسان ، وينبىء العقيد بما نحن فيه من خطر » .

ـ من عساى أرسل ياسيدى ؟ .. ان الأولاد جميعا قد التحقوا بالثورة ، والخيول صودرت كلها . آه ، ياالهى ! .. ها قد وصلوا الى الباحة .. انهم يقتربون من العنبر !

***

وفى هذه اللحظة ، سمعنا أصواتا وراء البــاب ، فأشرت الى أمى والى ماريا ايفانوفنا أن يعتصما فى ركن من الأركان ، ثم استندت الى الحائط بقرب الباب ، وسـللت سيفى ، وأخذ أبى المســدسين فسلحهما ، واصطف الى جانبى .. ورفع القفل ، وفتح الباب ، وظهر رأس المسجل فى المدخل ، فما لبثت ان هويت عليه بضربة من سيفى فخر على الأرض وسد بسقوطه مدخل العنبر . وفى هذه اللحظة ، أطلق أبى نار مسدسه فى الباب ، فاذا الحشد ـ الذى كان يحاصرنا ـ ينســحب الى الوراء . فجـررت الجريح الى الداخل ، وأغلقت الباب .. كان الجمع يعج بأناس مسلحين ، عرفت بينهم شفابرين . فقلت لأمى وماريا : « لاتخافا شيئا ! .. الأمل كبــير » . ثم التفت الى أبى قائــلا : « وانت يا أبت ، لاتطلق نار مسدسك . لنوفر مابقى لنا من ذخيرة ! »

وكانت أمى تصلى وتبتهل الى الله صامتة ، وقد وقفت ماريا ايفانوفنا الى جانبها تنتظر قرار القدر فى هدوءملائكى . وكانت تدوى فى الخارج أصوات التهديد والسباب والشتم . ظللت فى مكانى مستعدا لأن أمزق اربا أول جسور يمكن أن يظهر على الباب . وفجأة ، ســكت المجرمون . وســمعت صوت شــفابرين ينادينى باسمى . فقلت : « انا هنا ! .. ماذا تريد منى ؟ »

ـ سلم نفسك ياجرينيف ان المقاومة عبث لاطائل تحته . جنب أبويك العجوزين شر الموت ! .. لن ينقذك العناد ، فسوف أنتصر عليك !

ـ ماعليك اذن الا أن تحاول أيها الخائن .

ـ كلا ، لن أعرض نفسى لشيء فى غير فائدة ، ولن أعرض حياة رجالى للخطر . يكفينى أن آمر باشعال النار فى العنبر ، وسنرى ـ عندئذ ـ ما أنت صانع ، يا « دون كيشوت » بيلوجورسكايا !.. سأمضى الآن أتناول طعام الغداء ، وما عليك بانتظار ذلك إلا أن تفكر فى الأمر على مهلك . الى اللقاء ! .. وأنت يا ماريا ايفانوفنا ، لن أعتذر لك ، فلعلك لن تملى القعود فى الظلام ، الى جانب فارسك المغوار !

وابتعد شفابرين بعد أن أمر بحراسة العنبر . ولم نقل شيئا .. كان كل منا غارقا فى أفكاره ، دون أن يجرؤ على الافضاء بها للآخرين . كنت أفكر فيما يستطيع انسان كشفابرين أن يفعله اذا ثار ثائره ! .. وانى لأعترف بأن القلق الذى ساورنى على أبوى ، كان ضئيلا اذا قيس بالقلق الذى احدثه فى نفسى مصير ماريا ايفانوفنا .. كنت أعلم أن الفلاحين والخدم يحبون أمى الى درجة العبادة ، وان أبى يتمتع ـ كذلك ـ بمحبة الناس برغم قسوته ، لأنه كان عادلا ، وكان يعرف حاجات رعاياه الحقيقية . ولم تكن ثورتهم اذن بالخطيرة ، وانما هى زلة لا تعبر عن استياء ذى بال . فالامل ـ من هذه الناحية ـ لم يزل زوالا تاما . ولكن .. ولكن ما عسى أن يكون مصير ماريا ايفانوفنا بين يدى رجل فاجر لا ضمير له ؟ .. لم أكن اجرؤ على التوقف عند هذه الفكرة

الفظيعة ، وكنت أتهيأ (اللهم عفوك ومغفرتك !) لأن أقتلها قبل أن أراها واقعة فى قبضة عدوها !

***

انقضى على ذلك ما يقرب من ساعة .. كانت أصوات غناء السكارى تصل الى مسامعنا من القرية . وكان حراسنا يتمزقون حسدا ، فينتقمون لأنفسهم منا بأن يكيلوا لنا السباب ، ويهددوننا بالتعذيب والقتل . واخيرا اضطربت عرصة المنزل مرة أخرى اضطرابا كبيرا ، وسمعنا صوت شفابرين يقول : « هية ! هل فكرتم ؟ .. هل عزمتم على الاستسلام طائعين ؟ »

لم يجبه احد ، فانتظر مدة من الوقت ، ثم أمر باحضار القش . وما هى الا لحظات ، حتى رأينا النار تشتعل فى سجننا المظلم . وأخذ الدخان يتسرب من تحت الباب . عندئذ اقتربت ماريا ايفانوفنا منى وتناولت يدى فى رقة ولطف وقالت :

– اسمع يابترو اندريفتش ! .. لاتهلك ابويك ، ولا تهلك نفسك بسببى . دعنى اخرج ، فان شفابرين يصغى الى كلامى !

فصرخت فى غضب شديد : « مستحيل . أتدرين ما الذى ينتظرك ؟ » . فأجابت فى هدوء : « لن أعيش بعد ان يثلم شرفى ، ولكن .. ربما استطعت ان أنقذ الشخص النبيل الذى حررنى ، والأسرة الكريمة التى أحسنت وفادة يتيمة بائسة .. وداعا يا آندريه بتروفتش ، وداعا يا أفدوتيا

فاسيليفنا !.. جزاكما الله خيرا مما اسلفتما من احسان الى .. باركاني وأنعما على بالرضى !.. وداعا أنت يابترو اندريفتش .. تأكد أننى .. أننى .. »

هنا انفجرت فى نحيب قوى ، وهى تخفى وجهها بيديها .. كنت كمن طار صوابه . وانفجرت أمى فى بكاء غزير . فقال أبى : «كفى حماقة ياماريا ايفانوفنا ، من ذا الذى يدعك تذهبين وحدك الى هؤلاء اللصوص ؟ .. أبقى هنا وكفى ثرثرة . اذا كان لابد من الموت ، فلنمت معا !.. اسمعوا ماذا يقولون أيضا فى الخارج ؟ »

وسمعنا شفابرين يصيح : « الا تستسلمون ؟ .. الا ترون انه لن تمضى خمس دقائق حتى تقلى جسومكم قليا ؟ » . فأجابه أبى بصوت قوى حازم : « لن نستسلم أيها الحقير ! » .. وكان وجهه المغضن يشرق بقوة هائلة وعزيمة جبارة .. وكانت عيناه تقدحان شررا تحت حاجبيه الكثيفين . والتفت نحوى وقال : « آن الأوان ! »

ثم فتح الباب ، فاندفعت النيران الى الداخل ، وارتفعت ألسنة اللهب حتى بلغت جسور السقف المسدودة شقوقها بأغصان يابسة . وأطلق أبى نار مسدسه ، ثم جاوز العتبة المشتعلة بخطوة ، وهو يصيح بنا قائلا : « اتبعونى ! » . فأمسكت بيدى أمى وماريا ، وخرجت بهما بسرعة الى الهواء الطلق . فرأيت شفابرين مجندلا أمام العتبة ، قد صرعته يد أبى الضعيفة . وقد ذعر جمهور اللصوص من خروجنا المفاجىء هذا فتفرقوا .. الا انهم سرعان ما استردوا رباطة جأشهم ، واخذوا يطوقوننا . واستطعت أن أضرب عددا من

الضربات القوية . الا أن آجرة ـ رمتها يد حاذقة ـ قد اصابتنى فى صدرى ، فسقطت مغشيا على . واحاط بى اللصوص ، فجردونى من سلاحى . فلما أفقت من اغمائى ، رايت شفابرين راقدا على العشب داميا ، وقد أجلست أمام أسرتنا ، يسندنى بعضهم من الابطين . واحتشد حولنا جمهور من الفلاحين والقوزاق والباشكير .

***

كان شفابرين شديد الشحوب ، وقد وضع يده على جرحه . وكانت قسمات وجهه تعبر عن الألم والغضب .. رفع راسه فى بطء ، ونظر الى وجها لوجه ، ثم قال بصوت مضطرب لايفهم : **«أشنقوه . أشنقوهم جميعا . ماعداها !»**

فأحاط بنا الجمهور على الفور ، وجرونا نحو الباب الكبير . ولكنهم سرعان ما تركونا على حين فجأة ، فان زورين قد ظهر عند المدخل ، تتبعه كوكبة كبيرة من الفرسان ؛ قد أشهرت سيوفها . وأخذ العصاة يتبعثرون فى جميع الجهات ، واخذ الفرسان يطاردونهم فيطعنون من يطعنون ، ويأسرون من يأسرون . ونزل زورين عن حصانه ، فحيا ابوى ، ثم شد على يدى بقوة . وقال : « لقد وصلت فى اللحظة المناسبة .. هذه اذن خطيبتك ! » . فتضرج وجه ماريا ايفانوفنا ، بحمرة شديدة بلغت الأذنين . واقترب ابى من زورين ، وشكره بصوت هادىء على انفعال . وعانقته أمى وهى تناديه بقولها : « يا ملاكنا المنقذ ! »

سأل وهو يتفرس فى وجه الجريح : «من هذا ؟» . فأجاب

ابى فى شىء من الزهو : « انه رئيس العصابة.. لقد أعان الله يدى الضعيفة على معاقبة هـذا المسىء ، فثأرت بذلك لدم ابنى ! » . وقلت لزورين : « انه شفابرين ! »

- شفابرين ؟..انه ليسرنى أن أراه. خذوه أيها الفرسان وقولوا للطبيب أن يعنى به عنايته ببؤبؤ عينه !.. يجب حتما ان يستطيع شفابرين المثول أمام لجنة (قازان) السرية . انه احد المجرمين الرئيسيين ، ويمكن أن يكون لشهادته شأن كبير .

فتح شفابرين عينيه المتوجعتين . وكانت قسمات وجهه لاتعبر عن شىء غير الالم الجسمى ، فأضجعه الفرسان على معطفه ،ومضوا به .

***

ودخلنا غرف المنزل ، فكنت أشعر بتأثر شديد ، وانا انظر حولى واتذكر أيام طفولتى.. لم يتبدل فى البيت شىء ، بل كان كل شىء فى مكانه المعهود. ذلك أن شفابرين لم يسمح ينهب المنزل ، فقد احتفظ فى أعماق نذالته باشمئزاز غريزى من كل عمل من هـذا النوع .. وظهر الخدم فى الدهليز .. انهم لم يشاركوا فى العصيان أية مشاركة ، وقد فرحوا فرحا صادقا لاستردادنا حريتنا . وكان سافيليتش يتهلل طربا .

يجب أن أذكرانه اثناء الجفول الذى سببه هجوم العصاة، هرع سافيليتش الى الاسطبل الذى كان فيه حصان شفابرين ، فاسرجه واخرجه دون أن ينتبه اليه احد ، وانتهز فرصة الجلبة - التى قامت فى باحة المنزل - فمضى

مسرعا الى ضفة النهر ، فوجد هناك فرقة زورين تستريح الى جانب الماء .. وانبأ زورين بالخطر الذى نحن فيه ، فأصدر زورين أمره بأن تسرج الخيل ، وأن يتجـه الفرسـان نحو قريتنا فى أعظم سرعة ممكنة ، وقد وصلوا – بحمدالله – قبل أن يفوت الأوان .

واصر زورين على أن يظل راس المسـجل معروضـا عند مدخل الحانة بضع ساعات .

وعاد الفرسـان من مطـاردتهم وقـد أسروا عـددا من اللصوص ، فأودعوهم ذلك العنبر عينه ، الذى صمدنا فيه للحصار التاريخى .. ثم افترقنا ليذهب كل منا الى غرفته .. لقد كان أبواى العجوزان فى حاجة الى الراحة . وارتميت انا على سريرى ، وسرعان ما غططت فى نوم عميق ، لأننى لم يغمض لى جفن طوال الليلة البارحة . ومضى زورين يصدر أوامره .

وفى المساء تحلقنا فى البهو حول « السـمـاور » ، نتحدث فرحين عن الخطر الذى نجونا منه .. وسـكبت لنا ماريا ايفانوفنا أقداح الشاى . وجلست الى جانبها لا أهتم بشىء سـواها . وبدا على أبوى أنهمـا ينظران بعين الرضى الى علاقة الحب التى بيننا . مازالت ذكرى هذه السهرة منقوشة فى نفسى الى اليوم .. لقدكنت سـعيدا .. كنت فى ذروة السـعادة . ما أندر مثل هذه اللحظـات العذبة فى حياتنا الشقية !

***

وفى الصبـاح من الغـداة ، جـاء بعضهم ينبىء أبى أن الفلاحين قـد وفدوا الى البـاحة يعلنون التوبة ويطلبون

العفو . فخرج أبى اليهم . فلما أبصروه جثوا على الأرض . وقال أبى يخاطبهم : « ما الذى حملكم على العصيان أيها الحمقى ؟ » . فأجابوا جميعا بصوت واحد : « عفوك يا صاحب النبالة ! »

ـ كلام جميل ! .. « عفوك ياصاحب النبالة » ! .. ترتكبون الحماقات ، ثم تجيئون تطلبون العفو ؟ ! .. على كل حال ، من اعترف بذنبه فقد كفر عنه بعض التكفير .. لقد عفوت عنكم ، لأن الله من على بعودة ابنى بترو اندريفتش .

ـ لقد أخطأنا ، لقد أخطأنا !

ـ الجو صاح جميل ، وهذا أوان حصاد العشب ، فماذا عملتم خلال هذه الأيام الثلاثة أيها الأغبياء ؟ .. ياأستاروست ، ارسلهم جميعا الى المراعى ، وحاول أيها الحيوان الأشقر أن لايأتى عيد القديس يوحنا الا وقد تكدس العلف وثائم . هيا امضوا فى سبيلكم !

فانحنى الفلاحون يحيون ، ثم مضوا الى عملهم كأن شيئا لم يحدث .

لم يكن جرح شفابرين خطيرا . وقد ارسل مخفورا الى (قازان) . وكنت أطل من نافذة غرفتى حين رفعوه الى العربة التى ستقله الى قازان ، فالتقت نظراتنا . فخفض هو رأسه ، وغادرت أنا النافذة بسرعة ، خشية ان اظهر بمظهر المنتصر على عدوى فى حال بؤسه وذله .

وكان على زورين أن يتابع مهمته ، فقررت أن أصحبه ، برغم رغبتى الشديدة فى قضاء بضعة أيام أخرى فى أحضان أسرتى . وقبل الرحيل بيوم ، ذهبت الى أبوى ، فانحنيت

حتى لامست الأرض ، على عادة اهل ذلك الزمان ، **وطلبت اليهما الموافقة على زواجى بماريا ايفانوفنا .** فأنهضنى ابواى العجوزان واعلنا عن موافقتهما وهما يذرفان الدموع من شدة الفرح ، فمضيت أجيئهما بماريا ايفانوفنا شاحبة مرتجفة ، فباركا زواجنا . ولن أستطيع أن أصف ماشعرت به فى تلك اللحظه . من مر بمثل هذا الموقف ، يستطيع أن يفهمنى دون ان ألح فى الوصف . اما من لم يمر بمثل هذا الموقف ؛ فلا يسعنى الا ان ارثى لحاله ، والا أن انصحه — قبل ان يفوت الأوان — بأن يعشق ويطلب الى أبويه مباركة زواجه .

وفى الغداة ، كانت فرقتنا على اهبة السير . فاستأذن زورين أسرتى بالرحيل . وكنا جميعا على يقين من ان الأعمال الحربية ستنتهى فى القريب ؛ وكنت آمل أن أستطيع الزواج فى غضون شهر ، **وقد عانقتنى ماريا ايفانوفنا على مرأى من الجميع وهى تودعنى .** وصعدت العربة يتبعنى سافيليتش . وسار الركب ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أحول نظرى عن منزلنا ، الذى أتركه للمرة الثانية .. كان شعور بنذير الشؤم يجتاح نفسى ، حتى لكأن صوتا مجهولا كان يهتف بى أن محنتى لم تنته بعد .. كان قلبى يوجس خيفة من ملمات جديدة .

***

لن أصف هذه الحملة ، ولا نهاية حرب بوجاتشيف . وحسبى ان أذكر اننا مررنا بقرى نهبها رجال الغاصب نهبا فظيعا . ولم يكن لنا مناص من استلاب هؤلاء السكان

البؤساء ما قد تركه لهم اللصوص .. كانوا لايعرفون من يطيعون ومن يعصون . لم يبق من سلطات فى اى مكان .. كان أصحاب الأملاك مختبئين فى الغابات ، وكانت عصابات اللصوص تجوب البلاد ترتكب الجرائم ، وكان رؤساء القطعات الخاصة ، المكلفة بمطاردة بوجاتشيف ـ الذى أخذ ينهزم متجها نحو استراخان ـ يعملون وفقا لما يمليه عليهم هواهم ، فيعاقبون المذنب والبرىء على حد سواء . ورأينا منطقة بكاملها قد شب فيها الحريق ، واصبح اهلها فى حالة فظيعة من التشرد والجوع . الا وقانا الله شهود ثورة شعبية روسية ، ثورة مجنونة لاترحم ! .. ان اولئك الذين يفكرون فى تهيئة ثورات فى بلادنا ، اما انهم شبان لايتبصرون بعواقب الامور ، واما انهم اناس لايعرفون طبيعة شعبهم ، واما انهم رجال قساة القلوب لايقيمون وزنا لحياتهم ولا لحياة غيرهم من الناس .

لقد فر بوجاتشيف يطارده ايفان ايفانوفتش مكلسون . ثم ما لبثنا ان بلغتنا أنباء هزيمته الحاسمة . وقد تلقى زورين ـ أخيرا ـ نبأ أسر هذا المحتال ، وتلقى فى الوقت نفسه امرا بوقف تقدمه . لقد انتهت الحرب ، وأصبح فى وسعى أن أعود الى أهلى .. واشتعل قلبى حماسة ، حين تصورت أننى استطيع أن أعانق ابوى بعد قليل ، وأن أرى ماريا ايفانوفنا التى لم يبلغنى عنها اى نبأ .. كنت أقفز كالطفل الصغير من شدة الفرح ، وكان زورين يضحك ، ويهز كتفيه قائلا : « لا ، لا ، العاقبة وخيمة .. انك بالزواج تضيع نفسك فى غير طائل ! »

على ان شعورا غريبا كان يعكر على فرحى . كنت على

الرغم منى افكر فى ذلك اللص .. فى الدماء البريئة التى سفكها ، وفى العذاب الذى ينتظره. وكان ذلك يقلقنى.. كنت اخاطبه فى سرى آسفا : « آه منك ياامليان. لماذا لم تصبك طعنة من رمح ، لماذا لم تصبك رصاصة من مسدس ؟ .. ليت شيئا من هذا قد وقع لك ، اذن لمت ميتة حسنة ! »

ماذا تريدون ؟ .. كنت لا أستطيع أن أفكر فيه ، دون أن أتذكر أنه عفا عنى فى أحرج لحظة من لحظات حياتى ، وأنه أنقذ خطيبتى من براثن شفابرين اللئيم الكريه .

وأذن لى زورين بالرحيل .. وكنت أتهيأ للسفر بعد بضعة أيام ، لألقى أهلى وأرى ماريا ايفانوفنا ، لولا أن صاعقة لم تكن فى الحسبان وقعت على رأسى .. ففى اليوم المعين للرحيل ، فى اللحظة التى كنت أهم فيها أن آخذ سمتى الى قريتنا ، دخل على زورين ، وقد أمسك بيده ورقة ، وظهرت على وجهه علائم غم عميق .. شعرت بقلبى ينقبض فجأة .. شعرت بخوف لا أعلم أنا نفسى سببا له . وصرف زورين خادمى ، وقال انه يريد ان يكلمنى فى أمر من الامور . فسألته قلقا : « ماذا هنالك ؟ »

فقال وهو يمد الى الورقة : « شىء مزعج .. انظر ماذا تلقيت منذ هنيهة ! » . فتصفحت الورقة ، فاذا هى أمر سرى موجه الى جميع رؤساء القطعات الخاصة ، بأن يقبضوا على حيث يجدوننى ، وأن يسوقونى – على الفور – مخفورا الى « لجنة التحقيق » بقازان ، وهى اللجنة المكلفة بالتحقيق فى قضية بوجاتشيف .. وكادت الورقة تسقط من يدى . وقال زورين :

ـ يؤسفنى أننى مضطر الى تنفيذ الامر !.. لعل السلطات قد ترامت اليها أنباء أسفارك الودية مع بوجاتشيف . أرجو ان لا يجر هذا ذيولا سيئة ، وأن تستطيع تبرير عملك أمام اللجنة . لا تفقد شجاعتك ، وسافر من فورك !

كنت مرتاح الضمير ، لا أخشى ان ادان بشىء ، وانما كان يزعجنى أن لحظة اللقاء الجميل قد تتأخر بضعة أشهر . واعدت العربة ، وأبدى زورين كثيرا من المودة والصداقة ، وتمنى لى حظا سعيدا . وصعدت العربة ، فجلس عن يمينى جندى ، وعن شمالى جندى آخر ، وقد شهر كل منهما سيفه . وسارت بنا العربة فى الطريق الكبير .

(١٤) .. واخيرا ، انتهت المحن !

« اشاعات الناس كضجة البحر » - مثل

• كنت على يقين من ان سفرى من (اورنبورج) - دون استئذان - هو أساس هذه القضية كلها . وكان فى وسعى أن أبرر سفرى هذا بلا كبير عناء ، فان الخروج من (اورنبورج) لم يكن مباحا فحسب ، بل كان محبذا أيضا ، واذا كان لابد من الاتهام فيجب أن اتهم بشدة الحماسة والاخلاص والتفانى ، لا بالعصيان والخروج على ارادة السلطة . **غير أن عددا من القرائن يمكن أن ياتى مؤيدا لوجود علاقات ودية بينى وبين بوجاتشيف** ، ويمكن ان تبدو هذه العلاقات مشبوهة على أقل تقدير . هكذا ظللت طوال الوقت - الذى استغرقته الرحلة - أفكر فى الاستجواب الذى ينتظرنى ، وأفكر فى الاجوبة التى يجب على ان أسوقها . وقررت أن اطلع المحكمة على الحقيقة كلها ، لأننى رايت أن هذا التبرير ابسط أنواع التبرير واسلمها عاقبة .

ووصلت الى قازان .. كانت المدينة محربة . قد اتت عليها الحرائق ، فما ترى فى مكان البيوت الا ركاما محترقا ، وجدرانا لا أبواب فيها ولا نوافذ . **تلك كانت آثار مرور بوجاتشيف !..** وقادونى الى القلعة التى ظلت قائمة فى وسط الخرائب لم يمسسها أذى . ووضعنى الجنود بين يدى الضابط المناوب ، فاستدعى حدادا وضع القيد فى رجلى ، واحكم اقفاله بقوة . ثم قادونى الى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة مظلمة ضيقة عارية الجدران ، ليس لها الا نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية .. **ان بداية كهذه لا تبشر بخير . غير اننى لم أفقد الشجاعة ولا الرجاء .**

فكنت أعزى نفسى بما يعـزى به جميع المحزونين انفسهم . وبعد أن ذقت ـ للمرة الاولى ـ حلاوة الصلاة تخرج من قلب طاهر ـ وان يكن ممزقا ـ نمت نوما هادئا ، دون أن اشغل بالى بما ينتظرنى .

وايقظنى الحارس بكرة فى الغداة ، وأعلمنى ان اللجنة تريد ان ترانى . وجاء جنديان فاجتازا بى الباحة ، ثم ذهبنا الى منزل الآمر . حتى اذا وصلنا الى الدهليز ، تركانى أدخل الحجرات وحدى .. ودخلت فى بهو كبير ، فرأيت رجلين قد جلســا الى منضدة مفروشــة بأوراق كثيرة : أحدهما لواء (جنرال) ، قاسى النظرة ، مكفهر الوجه .. والآخر رئيس شاب ، من الحرس ، فى نحو الثلاثين من عمره ، لطيف المظهر ، منطلق الحركة . والى جانب النافذة ، جلس احد الكتاب الى منضدة خاصة ، وقد وضع ريشة وراء اذنه ، ومال على صفحة من الورق متهيئا لتسجيل أقوالى . وبدأ الاستجواب ، فسئلت عن اســمى وعن صفتى ، ثم سألنى القــائد ألست ابن اندريه بتروفتش جرينيف ، فلما أجبته بنعم ، قال بصوت قاس : ((**انه لمن المؤلم حقا أن يكون لرجل محترم كأبيك ابن مشين مثلك !**))

فأجبت ـ فى هدوء ـ بأننى آمل أن ابدد جميع الوشايات التى ترامت اليهم عنى ، كائنة ما كانت ، وذلك بتقرير الأمور على حقيقتها فى صراحة وصدق . فقال وهو يصعر وجهه : ((أنت يا صاحبى شاطر ، ولكننا رأينا كثيرا من الشاطرين امثالك !)) .. عندئذ سألنى الضــابط عن الظروف التى التحقت فيها بعصابة بوجاتشيف ، وعن المهمات التى عهد

بها الى بوجاتشيف هذا . فأجبت ــ مستاء ــ بأننى نبيل وضابط ، واننى بصفتى هذه لا يمكن أن أدخل فى خدمة بوجاتشيف ، ولا أن اقبل ان يكل الى اية مهمة . فتابع السائل يقول :

ــ فكيف أمكن اذن ، أن لا ينجو من اللص الا حضرة النبيل الضابط ، بينما شنق جميع رفاقه على أشنع صورة ؟ وكيف أمكن أن يمضى هذا النبيل الضابط عينه الى وليمة مع اللصوص . يؤاكلهم ويشاربهم كأنه صديق حميم ؟ .. وكيف أمكن أن يقبل من المجرم الاول عددا من الهدايا : معطفا وحصانا وكيسا من المال ؟.. من اين جاءت هذه الصداقة . وعلى اى أساس أمكن ان تقوم ان لم تقم على اساس الخيانة ، أو على أساس جبانة خائرة مجرمة على اقل تقدير ؟

لقد اهانتنى كلمات ضابط الحرس اهانة عميقة ، فبدات الدفاع عن نفسى فى حرارة . فقصصت كيف عرفت بوجاتشيف فى الفلاة ابان العاصفة ، وكيف أنه تعرفنى يوم الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، فلم يأمر بشنقى . واعترفت بأننى قبلت المعطف والحصان ، ولكننى ذكرت اننى دافعت عن الحصن ضد جيوش اللص الى آخر لحظة ، ثم اشهدت القائد اللواء ــ الذى كنت تحت امرته ــ على سلوكى أيام حصار اورنبورج ، ذلك الحصار الأليم .. وعندئذ تناول العجوز القاسى من على المنضدة رسالة مفضوضة ، واخذ يقرأ جهارا :

« جوابا على كتاب سعادتكم ، بصدد الضابط حامل العلم جرينيف ، المتهم بالاشتراك فى الاضطرابات القائمة وبوجود

علاقات بينه وبين اللص ، علاقات لم تسمح بها القيادة ولا تتفق مع اليمين الذى حلفه ، يشرفنى أن أنهى اليكم مايلى : ان الضابط جرينيف المذكور كان فى الخدمة باورنبورج ، من اول تشرين الاول (اكتوبر) الى اليوم الرابع والعشرين من شباط (فبراير) من هذه السنة . وفى هذا التاريخ ترك المدينة ، ولم يظهر بعد ذلك فى القطعات التابعة لقيادتى . وقد علمت من بعض الفارين الى معسكر العدو ، أنهم رأوه فى مركز بوجاتشيف ، وأن هذا صحبه الى حصن بيلوجورسكايا الذى كان يعمل فيه . اما عن سلوكه ، فاننى أستطيع .. »

وهنا انقطع عن القراءة ، وقال لى بصوت خشن : « والآن ماذا تقول ؟ »

كنت على أن أتم شروحى وعلى ان اسرد تاريخ علاقاتى بماريا ايفانوفنا ، فى مثل صراحتى حين رويت ما عدا ذلك ، لولا أننى شعرت ــ على حين غرة ــ بنفور من ذلك كبير لاسبيل الى مقاومته . لقد خطر على بالى أننى اذا أسميت الآنسة ميرونوف ، فلابد للجنة عندئذ من أن تستدعيها ، فلما تصورت اسمها مقحما فى وشايات سافلة ، وتصورتهم يستدعونها لمواجهة أقوالها بأقوالى ، اضطربت اضطرابا شديدا حتى صرت اتردد فى كلامى واتلعثم .. فلما لاحظ القضاة اضطرابى ، كان لابد أن يغيروا رأيهم فى ، بعد ان كانوا يصغون الى كلامى فى شىء من اللطف وحسن الظن . فأصدر اللواء امره باحضار « مجرم الأمس » .. فالتفت نحو الباب فى حركة عنيفة ، وأنا أتحرق شوقا الى رؤية ذلك الذى وشى بى . وما هى الا لحظات حتى سمعت رنين السلاسل ، وفتح الباب ، فاذا بى امام شفابرين .. شدهت للتغيير الذى طرأ

عليه . لقد كان شاحبا شحوبا هائلا ، وكان شعره ـ الذى عهدته منذ زمن قليل فى سواد الفحم ـ أبيض تام البياض ، وقد تهدلت لحيته طويلة كثة .

وكرر شفابرين اتهاماته بصوت ضعيف ، ولكن بلهجة قاطعة . فزعم أن بوجاتشيف أرسلنى الى (اورنبورج) جاسوسا ، واننى كنت أخرج من وراء الأسوار ـ فى كل يوم ـ أبادل رجال بوجاتشيف بضع طلقات وهمية من الرصاص ، **وأسلمهم تقارير مكتوبة عن كل ما يجرى فى داخل المدينة** . ثم التحقت علانية بمعسكر الغاصب ، وصحبته فى احدى جولاته من حصن الى آخر .. واننى كنت أحاول أن أسفه الخونة الآخرين ـ رفاقى ـ رجاء أن أحتل مراكزهم ، وأن استفيد مما يوزعه بوجاتشيف من مكافآت .

وأصغيت الى كلام شفابرين صامتا . وسرنى من كلامه شىء واحد : **هو انه لم يأت على اسم ماريا ايفانوفا بذكر** . ترى الآن كرامته يجرحها تذكر هذه الفتاة التى احتقرت حبه ، أم لان قلبه ما زال يحتفظ بشىء مما حملنى أنا على السكوت ؟.. المهم ـ على كل حال ـ ان اسم ابنة آمر موقع بيلوجورسكايا لم يذكر أمام لجنة التحقيق . وهذا كله جعلنى أصر على ما عزمت عليه . حتى اذا سألنى القضاة هل ثمة ما أقوله فى الرد على أقوال شفابرين ، أجبت بأننى أصر على أقوالى الاولى ، وبأننى لا أستطيع ان أفضى بشىء آخر .

فأمر اللواء باخراجنا من البهو ، فخرجنا معا . ونظرت الى شفابرين فى هدوء ، دون أن أوجه اليه كلمة واحدة ، فابتسم ابتسامة خبيثة ، ثم رفع السلاسل التى تقيد رجليه ، وأسرع

الخطو يتقدمنى فى الخروج .. وأعادنى الجنود الى سجنى، ثم لم استجوب بعد تلك اللحظة أبدا .

***

وما سأقصه بعد الآن لم أشهده بنفسى ، وانما روى لى مرات كثيرة ، حتى نقشت تفاصيله جميعا فى ذاكرتى.. حتى ليتراءى لى فى بعض الاحيان اننى شهدته بنفسى .

احتفى أبواى بماريا ايفانوفنا حفاوة عظيمة ، هى مما يتميز به أناس الزمان القديم . ورأيا فى ايوائهما يتيمة بائسة وفى احسان معاملتها ، بركة الهية هبطت عليهما من السماء . ثم مالبثا ان شعرا نحوها بحب صادق .. ذلك أنه يستحيل ان يعرفها امرؤ دون ان يحبها !.. واصبح ابى لا يرى فى عاطفتى نحوها نزوة من نزوات الشباب . أما أمى ، فقد أصبحت لا تفكر الا فى شىء واحد ، هو أن ترى ولدها «بتروشا» يتزوج هذه الفتاة الفاتنة ، ابنة الضابط الرئيس .

وقد صعقت الاسرة حين بلغها نبأ اعتقالى . وكانت ماريا ايفانوفنا قد روت لأبوى قصة علاقتى الغريبة ببوجاتشيف .. روتها تفصيلا فى بساطة تامة ، حتى ان أبوى لم يساورهما من ذلك أى قلق ، بل كانت القصة كلها موضع تندر وضحك .. كان أبى لا يستطيع ان يصدق ان من الممكن ان أشارك فى هذه الثورة الحقيرة ، التى لم يكن لها من غاية الا قلب العرش والقضاء على النبلاء . وأخذ يسأل سافيليتش ويلح فى السؤال ، فلم يخف عنه سافيليتش أن سيده الشاب قد زار اميليان بوجاتشيف ، وان هذا اللص كان يحبنى فيما يظهر .. الا أنه حلف اغلظ الايمان ان المسألة ليست مسألة خيانة البتة ، فهدأ روع أبوى ، وأخذا ينتظران الانباء

المطمئنة بفارغ صبر . اما ماريا ايفانوفنا ، فكانت فى حالة فظيعة من القلق .. الا أنها كانت صامتة لا تتكلم ، لأنها متواضعة متحفظة ، الى أبعد حدود التواضع والتحفظ .

وانقضت بضعة أسابيع على هذا النحو . وفجأة ، تلقى ابى — فى ذات يوم — رسالة من (سان بطرسبرج) ، بعث بها اليه قريبنا الأمير « ب .. » ، وفيها يقول ان شبهات اشتراكى فى خطط العصاة قدثبتت ثبوتا قاطعا — مع الأسف — وأن العقوبة القصوى كان ينبغى أن تكون من نصيبى ، لولا ان « الامبراطورة » — احتراما لمآثر الأب وسنه — قررت أن تنعم على الابن المجرم ، فأبدلت الاعدام العلنى المشين بنفى مؤبد الى أقاصى سيبريا ..

كادت هذه الصدمة المفاجئة أن تقتل أبى ، فاذا هو يفقد رباطة جأشه ، واذا الحزن الذى يحتمله عادة فى صمت ، يظهر الآن فى أقوال مرة . فكان لاينى يكرر : « كيف ؟.. ابنى يشارك فى اعمال بوجاتشيف !.. اللهم رحمتك ! أتصل بى الأمور الى هـذا الحـد ؟.. والامبراطورة تخفف عقوبة الاعدام !.. ولكن هل يخفف هذا من كربى ! ليس موته هو الذى يزعجنى !.. لقد مات جدى الأكبر على المقصلة وهو يدافع عما كان يعتقده أمرا مقدسا ، وعذب أبى مع فولنسكى وفروستوف . أما أن يحنث نبيل من النبلاء بيمينه ، فينضم الى لصوص ، الى قتلة ، الى عبيد هاربين ، فذلك عار بلطخ أسرتنا كلها !.. »

ذعرت أمى من هذا اليأس الذى سيطر على أبى ، فأصبحت لا تجرؤ على أن تبكى أمامه . وحاولت أن ترد اليه أمله ، فأخذت تحدثه عن كذب الاشاعات ، وعن تقلقل آراء الناس .

وكانت ماريا ايفانوفنا تتألم أكثر من الجميع ، لأنها واثقة من اننى أستطيع أن أبرر عملى ، **فحزرت سبب صمتى ، واتهمت نفسها بأنها هى السبب فى هذا البلاء .** كانت تخفى دموعها وآلامها عن الجميع ، دون أن تكف عن التفكير فى

وسائل انقاذى .. وفى ذات مساء ، كان أبى جالسا على الديوان يقلب جريدة البلاط ، دون أن تحدث فيه ما كانت تحدثه عادة من أثر ، وذلك لأن فكره الآن مسترسل فى أمور اخرى .. وكان بصفر لحنا عسكريا قديما . وكانت أمى تحيك قميصا من الصوف وهى صامتة ، تنحدر دموعها على القميص من حين الى حين .. وكانت ماريا ايفانوفنا معهما ، تعمل فى خياطة شىء من الأشياء ، **فاذا هى تعلن لهما على حين غرة ، أنها مضطرة الى السفر الى سان بطرسبرج ،** وتطلب اليهما أن يعطياها ما هى فى حاجة اليه من مال . وحزنت أمى لذلك حزنا شديدا . وقالت : « مالك وسان بطرسبرج ؟.. أتريدين أن تتركينا أنت أيضا ؟ »

فأجابت ماريا ايفانوفنا بأن مستقبلها متوقف على هذه السفر ، وانها ذاهبة الى العظماء تطلب حمايتهم ومعونتهم ، بصفتها ابنة ضابط قضى نحبه فى سبيل واجبه .

خفض أبى رأسه .. لقد كان يؤلمه كل كلام يذكر بجريمة ابنه الوهمية ، حتى لكأنه يرى فى مثل هذا الكلام لوما وتقريعا . فقال وهو يطلق من صدره زفرة حرى : « أمضى الى شأنك يا ابنتى .. اننا لا نريد أن نحول بينك وبين السعادة . أسأل الله أن يقيض لك زوجا لم تدنسه الخيانة !» ثم نهض وترك الغرفة .

فلما أصبحت وحيدة معامى ، أفضت اليها ببعض ماعقدت

النية عليه ، فتهلل وجه أمى ، وعانقت ماريا فى حرارة ، وابتهلت الى الله أن يبارك جهود كنتها المقبلة . ثم أعدت لها عدة السفر . وما هى الا بضعة أيام ، حتى رحلت تصحبها خادمتها الأمينة بالاشا ، ويصحبها كذلك سافيليتش .. ان هذا العجوز الذى فرقت بينى وبينه ظروف قاهرة ، كان يعزيه ان يتصور أنه يخدم الفتاة التى ستكون زوجتى فى المستقبل !

***

وصلت ماريا ايفانوفنا الى (صوفيا) ، دون ان تعترضها صعوبات . فلما علمت أن البلاط يقيم — فى تلك الآونة — فى مدينة (سلو) (١) قررت ان تتوقف فى هذه المدينة . واقامت لدى زوجة مدير البريد ، وسرعان ما أنبأتها هذه أنها ابنة أخى الوقاد فى القصر ، ثم أطلعتها على جميع أسرار القصر ، فذكرت لها فى اية ساعة تنهض الامبراطورة من نومها ، وفى اية ساعة تحتسى قهوتها ، وفى اية ساعة تقوم بنزهتها .. وذكرت لها أسماء العظماء الذين يحيطون الآن بالامبراطورة ، بل حدثتها عما قالته الامبراطورة أمس على مائدة الطعام ، وسمت الشخص الذى استقبلته فى المساء .. الخ .

ان هذا الحديث الذى أرسلته « آنا فاسيليفنا » يساوى صفحات من التاريخ ، يمكن ان يستفيد منها المؤرخون فى المستقبل . وقد أصغت « ماريا ايفانوفنا » الى هذا الحديث فى انتباه شديد . ثم قامتا الى الحديقة تتنزهان فيها ، فقصت آنا فاسيليفنا تاريخ كل ممر وكل جسر . وبعد أن

---

(١) مقر امبراطورى يقع على بعد اثنين وعشرين فرسخا من سان بطرسبرج ، وصوفيا احدى ضواحيه .

تنزهتا ما شاء لهما التنزه ، عادتا الى البيت وقد سرت كل منهما بالاخرى أيما سرور .

وفى الغداة ، استيقظت ماريا ايفانوفنا من نومها مبكرة ، فارتدت ثيابها فى رفق ، ومضت الى الحديقة . كان الصباح جميلا : فالشمس تلقى أشعتها على ذرى أشجار الزيزفون التى أحال لونها نسيم الخريف ، والبحيرة تلمع تحت أشعة الشمس ببريق جميل ، والأوز يستيقظ فيخرج مزهوا من الادغال التى تحف بشواطىء البحيرة . وأخذت ماريا ايفانوفنا تطوف فى مرج جميل ، أقيم فى وسطه نصب تذكارى ، تخليدا لذكرى الانتصارات الرائعة التى حققهـا الكونت « بترو الكسندروفتش روميانتزيف » منـذ مدة يسيرة . وانهـا لكذلك ، فاذا هى ترى كلبـا صغيرا أبيض ، من عرق انجليزى ، يعدو نحوها وهو يعوى . فأخـذها خوف فوقفت فى مكانها لاتتحرك ، فاذا هى تسمع صوتا نسويا جميلا يقول : « لا تخافى .. انه لا يعض ! »

فالتفتت ماريا ، فاذا هى ترى سيدة جالسة على مقعد أمام التمثال . فجاءت اليها ، وجلست على الطرف الآخر من المقعد . كانت هذه السيدة لاتنقطع عن التفرس فيها ، وكانت ماريا ايفانوفنا تلقى على السيدة نظرات خجلى من حين الى حين ، فاستطاعت بهذه النظرات أن تفحصها من أخمص القدم الى قمة الرأس .. كانت السيدة ترتدى ثوبا أبيض من ثياب الصباح ، ومعطفا من فراء ، وقبعة من قبعات المسـاء . وكانت تبـدو فى الأربعين من عمرهـا ، موردة الوجنتين ، على وجهها سيماء الهدوء والوقار ، وفى عينيها الزرقاوين وابتسـامتها الرقيقة سـحر لايقاوم . وأخيرا

قطعت السيدة حبل الصمت . قالت : « لاشك أنك غريبة عن البلدة » .

– نعم ياسيدتى . لقد وصلت أمس من الأقاليم .

– وهل وصلت مع ذويك ؟

– لا ياسيدتى ، فأنا وحيدة .

– وحيدة ؟ .. ولكنك مازلت فى ريعان الصبا !

– ليس لى أب ولا أم ..

– لاشك انك أتيت لشأن من الشئون .

– نعم ياسيدتى ، أتيت ألتمس أمرا من الامبراطورة .

– انك يتيمة ، فلعلك جئت ترفعين شكوى من ظلامة وقعت عليك .

– لا ياسيدتى .. ما جئت أطلب حقا ، وانما جئت التمس عفوا !

– هل لى أن أسألك من أنت ؟

– أنا ابنة الضابط الرئيس ميرونوف .

– الرئيس ميرونوف ؟.. ذلك الذى كان آمر أحد حصون أورنبورج ؟

– نعم ياسيدتى .

وظهر التأثر على السيدة . فقالت وقد زادت لهجتها رقة وعطفا : « استميحك عذرا اذا انا تدخلت فى شؤونك الخاصة .. **ولكننى ممن يحظون بالاستقبال فى بلاط الامبراطورة ، فأرجو أن تشرحى لى طلبك ، عسى أن أفيدك فى شىء ! »**

فنهضت ماريا ايفانوفنا من مكانها ، وانحنت تشكر السيدة فى احترام .. ان كل شىء فى هذه السيدة المجهولة يجذب القلب ويوحى بالثقة . استلت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة مطوية ، ومدتها الى هذه الانسانة التى تولت حمايتها على غير انتظار . وأخذت السيدة تقرأ الورقة بينها وبين نفسها .. وكانت ــ فى أول الأمر ــ تقرأ فى انتباه جميل كريم . الا أن قسماتها قست فجأة . وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع بنظرها أيسر حركة من حركاتها ، فخافت من هذا التغير الذى طرأ على وجهها ، بعد أن كان ـ منذ دقيقة ـ هادئا كل الهدوء جميلا كل الجمال .

قالت السيدة فى لهجة جافة : «تطلبين العفو عن جرينيف؟ .. ان الامبراطورة لاتستطيع أن تبرىء هذا الجانى .. **انه لم يلتحق بالثورة عن جهل أوطيش ، وانما هو شقى خطر لايعرف الايمان ولايرعى حرمة القانون ! »**

فصرخت ماريا ايفانوفنا : « ليس هذا صحيحا ! » . فهتفت السيدة ، وقد تضرج وجهها بحمرة شديدة ، على حين فجأة : « كيف لا يكون هذا صحيحا ؟ »

ــ أقسم لك أنه غير صحيح .. اننى أعرف كل شىء ، سأقص عليك كل شىء .. **من أجلى أنا وحدى ، انما عرض نفسه لكل ماوقع له** . ولئن لم يشأ أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة ، فذلك حتى لايقحمنى فى هذه القضية !

ثم أخذت تقص عليها ــ فى حرارة ــ كل ماقصصناه عليك أيها القارىء ، فأصغت اليها السيدة فى انتباه ، ثم سألتها عن المكان الذى تقيم فيه الآن . فلما سمعت أسم آنا فاسيليفنا ، قالت وهى تبتسم : « ها .. نعم ، عرفت ..

وداعا ! . . لاتتحدثى الى أحد عن لقائنا . . آمل أن لاتضطرى الى انتظار الجواب مدة طويلة ! » . ثم نهضت ، ومضت الى سبيلها . وعادت ماريا ايفانوفنا الى مسكن آنا فاسيليفنا وقلبها يفيض فرحا ورجاء .

لامتها «آنا» على نزهتها الصباحية ، لأن هذه النزهة قد تضر بصحة الفتاة . ثم أتت بسماور الشاى . وفيما هى تنطلق فى حكاياتها عن القصر ـ هذه الحكايات التى لا ينضب لها معين ـ اذا بعربة تدخل الباحة ، وتتوقف أمام الباب ، فينزل منها خادم من خدم القصر ، **ويعلن أن صاحبة الجلالة تدعو اليها الآنسة ميرونوف .**

فانفعلت آنا فاسيليفنا من ذلك أشد الانفعال ، وأخذت تتحرك فى اضطراب ، وهتفت تخاطب ماريا : « ياالهى ! . . ان صاحبة الجلالة تدعوك الى لقائها . كيف عرفت أنك هنا ؟ ثم كيف تستطعين أن تمثلى بين يديها يابنيتى ! . . اعتقد أنك لاتجيدين التقدم اليها على النحو اللائق . ليتنى أستطيع الذهاب معك ، اذن لأسديت اليك بعض الارشادات . ثم كيف تذهبين اليها وانت فى ثياب السفر هذه ؟ . . ليتنى أرسل أحدا الى القابلة أسألها أن تعيرك ثوبها الأصفر ! » . **فقال الخادم ان مشيئة صاحبة الجلالة ان تحضر اليها ماريا ايفانوفنا وحدها ، كيفما تكون .** فلم يبق ثمة مجال للأخذ والرد . فصعدت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت الى القصر تصحبها نصائح آنا فاسيليفنا ودعواتها .

***

شعرت ماريا ايفانوفنا أن مصيرنا رهن بهذه المقابلة ، فكان قلبها يخفق تارة ، وينقبض من الخوف تارة أخرى .

وما هى الا بضع دقـائق حتى توقفت العربة أمام القصر . واخذت ماريا ايفانوفنا تصعد الدرج وهى ترتعد . وكانت الأبواب تنفتح أمامها على مصاريعها .. واجتازت سلسلة كبيرة من الحجرات الفخمة لم تر فيها أحداً. وكان الوصيف يرشدها الى الطريق ، فاقترب ــ أخيرا ــ من باب مغلق ، وقال انه داخل يؤذن بقدومها .. وتركها تنتظر .

كانت من شـدة الخوف ــ وهى تتصور أنها سـتلقى الامبراطورة وجها لوجه ــ بحيث لاتكاد تقوى على الوقوف على قدميها . وماهى الا لحظة ، حتى فتح الباب ، ودخلت ماريا ايفانوفنا حجرة زينة الامبراطورة .

كانت الامبراطورة جالسة أمام مرآة ، وقد حف بها عدد من الوصفاء . فلما اقبلت ماريا تباعد الوصفاء فى كثير من الاحترام ، يفسحن لها طريق المرور الى الامبراطورة .

والتفتت الامبراطورة بوجهها الذى يفيض كرما ونبلا ؛ فاذا ماريا ترى نفسها أمام تلك السيدة التى افضت اليها بقصتها منذ قليل فى كثير من الصراحة . نادتها الامبراطورة اليها ، وقالت لها فى ابتسامة : « يسرنى ان احقق ما قطعت لك من عهد ، وان انظر الى طلبك بعين الاعتبار . لقد انتهت قضيتك ، واقتنعت ببراءة خطيبك .. وهذه رسـالة منى ارجو ان تحمليها الى حميك بيدك ! »

فتناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد مرتجفة ، واخذت تبـكى ، وارتمت على قـدمى الامبـراطورة ، فانهضتهـا الامبراطورة ، وقبلتهـا . ثم قالت لها : « أعلم أنك لست بالغنيـة ، الا أن لابنة الرئيس ميرونوف علينـا حقوقا .. لايقلقنك المستقبل ، فسأتولى تقديم مايوفر لك حياة رخية !! »

وبعد ان غمرتها بمداعباتها ، أذنت لها بالانصراف . فعادت الى مسكن آنا فاسيليفنا على العربة عينها التى أقلتها الى القصر . وهنالك اغرقتها آنا فاسيليفنا بوابل من الأسئلة ، كانت تجيب عليها ماريا كيفما اتفق . ورغم ان « آنا فاسيليفنا » استاءت من ضعف ذاكرة الصبية ، فانها غفرت لها ذلك فى كثير من الكرم والسخاء ، اذ عزته الى الخجل الذى تتصف به بنات الاقاليم . وعادت ماريا ايفانوفنا الى الريف – فى ذلك اليوم نفسه – دون أن تغريها زيارة سان بطرسبرج .

. . . .

. . . .

هنا تنتهى مذكرات بترو اندريفتش جرينيف . وقد علمنا مما تتناقله الأسرة أبا عن جد من أحاديث ، **أن بترو اندريفتش قد أطلق سراحه بأمر امبراطورى فى أواخر عام ١٧٧٤ ، وأنه شهد أعدام بوجاتشيف** ، وأن بوجاتشيف هذا قد رآه فى الحشد فعرفه ، فحياه بهز راسه ، وأن هذا الرأس نفسه عرض على الشعب بعد لحظة مضرجا بدمه . وقد تزوج بترو اندريفتش بماريا ايفانوفنا بعد ذلك بقليل ، وها هى ذريتهما تزدهر الآن بمقاطعة (سمبرسك) .

. . . .

. . . .

على بعد ثلاثين فرسخا من بلدة س (..) تقوم قرية يملكها عشرة أشخاص . وفى أحد بيوت هذه القرية ، يدخل الداخل فتطالعه فى صدر احدى قاعاتها رسالة موضوعة فى اطار ، هى **الرسالة التى كتبتها كاترين الثانية بخط يدها ، وبعثت بها الى والد بترو اندريفتش** ، تبرىء ابنه مما نسب اليه ، وتطرى فى ابنة الضابط ميرونوف نبل قلبها وحسن ذكائها .

ان أحد أحفاد بترو اندريفتش هو الذى قدم الينا مخطوطة هذه المذكرات - التى كتبها جده - حين علم أننا نعمل فى تاريخ هذه الفترة . فقررنا أن ننشر المخطوطة مستقلة ، بعد أن استأذنا فى ذلك أصحاب الشأن . ولم نزد عليها الا بضعة أبيات من الشعر تناسب المقام ، صدرنا بها مطالع الفصول ، كما أخذنا على عاتقنا تبديل بعض أسماء الاعلام .

(١٨٣٦ - ١٨٣٣)

ناشر المخطوطة : الكسندر بوشكين

تمت

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

هذه المرأة .. من تكون ؟

اذا كان الجمال نعمة ، فان هذه المرأة بالذات قد جعلت منه نقمة .. **على امة بأسرها ، وفى بقعة من أقدس بقاع الارض !**

واذا كان الحب نعيما ، وعاطفة سامية ، وشعورا نبيلا ، **فان هذه المرأة بالذات جعلت منه وبالا ، وهوت به الى احط درك ، وقلبته الى حيوانية بشعة ! !**

وقد تكون لها اعذار .. فلقد ولدت فى أسرة عبثت بكل القيم والمقومات ، فى سبيل اطماعها الجامحة .. عبثت بالدين ، واتخذته اداة للغدر .. وعبثت بالشرف واتخذته اداة للدس .. وعبثت بالعواطف الانسانية ، واتخذتها ذرائع للتآمر ، فى سبيل بلوغ غاياتها : الحكم ، والمال ، والسيادة !

اما من تكون هى ..

فهذا ما سوف تطالعه فى العدد القادم من « مطبوعات كتابى » .. **فاحرص على ان لا يفوتك هذا العدد ، واوص البائع من الآن على نسختك !**

كتابي

الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية

قدم لك فى اعداده السابقة مجموعة ضخمة من أروع الكتب العالمية - قديمها وحديثها - فى كافة النواحى والموضوعات ..

ويحشد لك فى اعداده القادمة، مجموعة أضخم، من شوامخ الأدب القديم، ومن أروع الكتب الحديثة، التى يجلبها لك من عواصم أوربا وآسيا وكافة أرجاء العالم.. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة العالمية، ويزودك بكنز عقلى ووجدانى - لم يسبق له مثيل باللغة العربية - ويمكنك من أن تترك لأولادك تراثا ثقافيا لا يقدر بمال ..

احرص على اقتناء كل عدد جديد

واطلب الأعداد السابقة من الإدارة

١٤ شارع ٢٦ يوليو (عمارة الجندول) - ت: ٥٩٥٥٦

(تاهيتى) جنة المحيط الهادى

قصص الحب فى سياسة العالم!

ملعونة هى الشهرة! (أحدث كتاب عن حياة

يوميات فرانسوا مورياك

قصة الفساد والانحلال فى فرنسا، قبل الحرب الأخيرة

كيف تستغل عقلك (من كتب علم النفس العملى)

ڤولتير العاشق

امرأة بلا حب — أندريه موروا

الطفل.. رجل الغد! أحدث أساليب معاملة الطفل وتربيته

من عادات الشعوب

نابليون العاشق

أول كتاب عن حياة ومأساة "ستيفان زفايج"

يصدرها حلمى مراد

وترقب أيضا الأعداد الشائقة القادمة من السلسلة الشقيقة

مطبوعات كتابى

التى أعدت لك بدورها برنامجا ثقافيا ضخما